الطبعة الثانية

للناشئين والشباب

روائع الأدب العالمي 8

في كبسولة

عرض وتبسيط: حسين عيد



- أليس في بلاد العجائب
- الأمير الصغير
- التحـــــول
- صورة دوريان جراي
- ماسة كبيرة بحجم الريتز
- طريق الخروج الطويل
- خارجان على القانون
- إيثـان فـــروم

مكتبة الدار العربية للكتاب

روائع الأدب العالمي في كبسولة 8

مما لاجدال فيه أن هناك أعمالاً أدبية رائعة.. تجاوزت حدود مؤلفها وحدود بيئته والمكان والزمان.. تقبل أن تكون ما اتَّفقَ عليه التلقي الإنساني بوضعها في كوكبة " روائع الأدب العالمي في كبسولة ".. كمحاولة متواضعة لوضع ذلك الرصيد الهائل من التجارب الإنسانية الأدبية أمام الأجيال القادمة لتستلهم منها القيمة والتجربة..

وهذا الجزء يضم ثماني قصص من هذه الروائع، أولاها " أليس في بلاد العجائب " لمؤلفها لويس كارول، بما فيه من غرائب وعجائب، ثم " الأمير الصغير " لأنطوان دي سانت أكزوبري، والتي ترصد أدق تفاصيل التعبير الإنساني، وتليها " التحول " لفرانز كافكا، حيث يرصد فيها غرابة السلوك البشري، أما " صورة دوريان جراي " لأوسكار وايلد فتتناول علاقة الإبداع بالمجتمع .. وبينما تتناول " ماسة كبيرة في حجم الريتز " لفيتزجيرالد فكرة الارتحال في حياة البشر، تركز " طريق الخروج الطويل " للمؤلف نفسه على فكرة الحرية كمقابل للوجود بسياقيها الواقعي والرمزي، التي ترسخ لهما قصة " خارجان على القانون " لسلمى لاجرلوف، في تأكيد على فكرة الجريمة والعقاب، ويختتم هذا الجزء من الروائع بـ " إيثان فروم " لإيديث وارتن، والتي تكشف عن الصراع الحتمي بين البقاء والرحيل .. بين الثابت والمجهول..





مكتبة الدار العربية للكتاب

روائع الأدب العالمي 8

في كبسولة

عيد، حسين .

روائع الأدب العالمي في كبسولة (8) / عرض وتبسيط حسين عيد

. ـ ط2 ـ القاهرة : مكتبة الدار العربية للكتاب، 2011 .

208 ص ؛21 سم . (روائع الأدب العالمي في كبسولة للناشئين والشباب ؛ 8)

تدمك : 977-293-624-0

1 - الأدب - مجموعات .

أ ـ عيد، حسين (عرض وتبسيط) .

ب ـ السلسلة . 808.8

مكتبة الدار العربية للكتاب

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص.ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

رقم الإيداع : 21791 / 2008

الطبعة الأولى : شوال 1430هـ - سبتمبر 2009م .

الطبعة الثانية : رمضان 1432هـ - أغسطس 2011م .

للناشئين والشباب

8

روائع الأدب العالمي

في كبسولة

عرض وتبسيط : حسين عيد

- أليس في بلاد العجائب
- الأمير الصغير
- التحول
- صورة دوريان جراي
- ماسة كبيرة بحجم الريتز
- طريق الخروج الطويل
- خارجان على القانون
- إيثان فروم

مكتبة الدار العربية للكتاب


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

* * *

مقـــدمة

الأدب العالمي بستان خصب، سامق الأشجار، يانع الأزهار، يلوذ به البشر دوما، يرتاحون تحت ظلال أشجاره الوارفة، يمتّعون البصر برؤية جمال أشكاله، ويتذوّقون ثماره المتنوّعة، فإذا هي عذبة المذاق، تغذي الروح والقلب جميعا، وتمنحهما دفئا ناعما، متفهّما لحركة الحياة والكون من حولهم!

***

عالم الأدب العالمي، هو عالمي الأثير، منذ أن تفتحت قدراتي على نعمة (القراءة)، وأنا في المرحلة الإعدادية، فرحت أنهل من ينبوعه الخصب، المتدفق، وكلما نهلت أكثر ازددت شغفا وإقبالا، وتنامي ذلك الشغف واتسع بمضي العمر!

لذلك، كم أسعدني تكليف الأستاذ محمد رشاد الكريم، صاحب مكتبة الدار العربية للكتاب، بأن أستكمل سلسلة "روائع الأدب العالمي (في كبسولة)"، فهو تشريف كبير لي أن أكون خلفا لخير سلف، وهو الراحل الكبير مختار السويفي، الذي أنجز منها سبعة أجزاء، خرجت جميعا في ثوب قشيب، لافت للنظر، مثير للإعجاب!

يتضمن هذا الجزء الجديد، باقة من أروع ثمار الأدب العالمي، وإن غلب عليها جوّ (الرحلة). قد يكون ذلك الارتحال تارة (خياليا)، حين تقوم بنت

صغيرة برحلة إلى أرض العجائب (في "أليس في بلاد العجائب" للإنجليزي لويس كارول)، أو حين يقوم الأمير الصغير برحلة إلى كوكب الأرض (في "الأمير الصغير" للفرنسي آنطوان دي سانت أكزوبري)، أو حين نرتحل مع جريجور سامسا بعد أن تحوّل إلى حشرة ضخمة (في "التحوّل" للتشيكي فرانز كافكا)، أو مع رحلة التطوّر الروحي، الذي يطرأ على صورة رجل ناضج (في "صورة دوريان جراى" للايرلندي أوسكار وايلد)، أو رحلة فتي يافع إلى عالم أسرة تمتلك سرّا جبلا من الماس النقي (في "ماسة كبيرة بحجم الريتز" للأمريكي ف. سكوت فيتزجيرالد). وقد يكون ذلك الارتحال تارة أخري (واقعيا)، حين نتابع رحلة نفسية لامرأة مسكينة لم تستطع أن تستوعب موت زوجها (في "طريق الخروج الطويل" للأمريكي ف. سكوت فيتزجيرالد)، أو حين يرتحل قاتل وسارق إلى الغابات ليلتقيا هناك وجها لوجه (في "خارجان على القانون" للسويدية سلمي لاجرلوف)، أو حين يجبر شخص على الإقامة في قرية معزولة وسط الجليد ليكتشف نوعا فريدا من عذاب البشر (في "إيثان فروم" للأمريكية إديث وارتن).

وكلي أمل أن يجد فيها القارئ بعض المتعة والفائدة.

..وبالله التوفيق،

حسين عيد

(نوفمبر 2006)

لويس كارول

"أليس في بلاد العجائب"

كانت أليس تجلس مع أختها الكبرى على كرسي طويل. كانت أختها تقرأ كتابا، بينما أصبحت أليس ملولة ونعسانة. تصفحت أليس كتاب أختها، فوجدته مملا، وراحت تفكر "ما جدوي كتاب ليس فيه صور أو حوارات؟". فجأة ارتفعت ضجة "الأرنب الأبيض"، وهو يهرول أمامها متضايقا من تأخيره، وحين أخرج ساعة من جيبه ليتأكد من الوقت، نهضت أليس وطاردته. رأت الأرنب ينزلق عبر جحره، فتتبعته عبر نفق حتى وجدت نفسها تهوي فجأة فيما بدا بئرا عميقا.

راحت أليس تسقط لوقت طويل، لدرجة أنها تساءلت عمّا إذا كانت ستسقط مباشرة عبر الأرض إلى الجانب الآخر. لكنها لاحظت على حوائط البئر خلال سقوطها صوانات كؤوس، وأطباق، وأرفف كتب، وصور. لم تكن توجد هناك أشياء كثيرة تشغلها أثناء سقوطها الطويل، لذلك راحت تستعيد أثناء هبوطها بعض دروسها، كما أجرت حوارات متخيّلة مع قطها "دينه". أخيرا ارتطمت بالأرض دون إصابة، فنهضت واستمرت في مطاردتها للأرنب الأبيض.

سمعت الأرنب يقول: "يا لأذناي وشعر شاربي، كم تأخر الوقت!". لكنها لم تكن قادرة على اللحاق به، وانتهت إلى قاعة طويلة ذات أبواب على جانبيها. حاولت أليس أن تفتح أيّا منها، لكنها كانت كلّها مغلقة. فجأة وجدت أليس مائدة زجاجية عليها مفتاح ذهبي صغير، وحين حاولت أن تفتح به الأبواب المغلقة، لاحظت ستارة منخفضة لم ترها من قبل. كان

وراء الستارة باب ارتفاعه خمس عشرة بوصة. فتح المفتاح الصغير هذا الباب. رأت أليس من خلاله أجمل حديقة يمكن تخيّلها، فحاولت أن تخرج من القاعة المظلمة، وتدخل إلى الحديقة، لكن جسمها كان شديد الكبر بشكل لا يتناسب مع عبورها من الباب الصغير، فرجعت أليس متضايقة إلى المائدة الزجاجية، آملة أن تجد مفتاحا لباب أكبر ،أو كتابا يرشدها كيف تصبح أصغر بواسطة الانغلاق مثل تلسكوب. وبدلا من ذلك وجدت أليس شيئا جديدا على المائدة، كانت زجاجة مع ملصق مكتوب عليه "اشربني". كانت أليس قد قرأت قصصا تحدث فيها أشياء سيئة للأطفال، الذين لا يعرفون أبسط قواعد الحكم على الأشياء، فتأكدت من أن الزجاجة ليس مكتوبا عليها "سمّ"، قبل أن تتجرعها كلها.

لكن أليس لم تنغلق كتليسكوب كما تعشمت، بل انكمشت إلى ارتفاع عشرة بوصات، ومضت إلى الباب الموجود بالحديقة، لكنها تذكرت أنها تركت المفتاح الذهبي على المائدة الزجاجية، التي تعملقت الآن فوقها، فجلست وراحت تبكي بأسي. ثم حدّثت نفسها بعدم جدوي البكاء، لأنّ أليس كانت مغرمة بالتظاهر بأن تكون شخصين في الوقت نفسه، وسرعان ما تيقنت من أنها لم تعد كبيرة بما فيه الكفاية، كي تصبح حتى مجرد فرد عادي.

لاحظت أليس بعد وهلة وجود صندوق زجاجي تحت المائدة، وجدت بالصندوق كعكة مع ملصق مكتوب عليه "كلنى"، فأكلتها فورا، متعشمة أن يتغيّر حجمها، وأن يكبر حتى تصل إلى المفتاح ،أو تنكمش حتى تنزلق من تحت الباب إلى الحديقة. لكنها ظلت بنفس حجمها في النهاية، وهي مندهشة تماما (على الرغم من أن ذلك كان نتيجة تناول الكعكة الصغيرة).

****

وسرعان ما بدأت أليس تكبر وتكبر، وحين بدأت تنفتح مثل تلسكوب، صاحت متعجبة: "غريبة .. غريبة"، وودعت قدميها اللذين ابتعدا تماما عنها، مفكّرة في أفضل طريقة للتواصل معهما، فتيقنت من عبث تفكيرها، وأنه ما لم يصل طولها إلى عشرة أقدام، فلن يمكنها أن تأخذ المفتاح من فوق المائدة، وتمضي إلى الباب. لقد أصبحت الآن أضخم كثيرا من أن تعبره، فبدأت تنتحب بحزن، وبكت بدموع غزيرة لمدة طويلة، حتى أصبحت محاطة ببحيرة من الدموع عمقها عدّة أقدام.

رجع الأرنب الأبيض في تلك اللحظة مهرولا عبر القاعة. كان قد ارتدي ملابسه بأناقة ويحمل قفازين ومروحة، وما زال يغمغم بأنّه تأخر. حاولت أليس أن تطلب المساعدة من الأرنب، لكنّها روّعته بشكل سيئ لدرجة أن سقط منه القفازان والمروحة، وفر هاربا. التقطت أليس المروحة، وبدأت التهوية لنفسها، وهي تتساءل عن السبب في أن كل شيء يمضي بغرابة خلال هذا اليوم. وتساءلت عمّا إذا كانت قد أصبحت اليوم شخصا مختلفا، وتساءلت: "هل تغيّرت في الليل؟ دعني أفكّر: هل كنت أنا نفس الشخص حين نهضت في هذا الصباح؟ أعتقد غالبا أنني أتذكر أن شعوري كان مختلفا قليلا. لكن إذا لم أكن نفس الشخص، فإن السؤال التإلى يصبح "من أنا، في هذا العالم؟". آه، يا له من لغز محير!".

وفي محاولة كي تقرر من تكون، اختبرت أليس نفسها لتري إذا ما كانت تعرف كلّ الأشياء التي اعتادت أن تعرفها. حاولت أن تسمّع جدول الضرب عن ظَهْرِ قلبٍ، لكنه لم يأت كما ينبغي، فحاولت أن تسمّع محفوظات الحضانة، فجاء تسميعها غريبا أيضا. قررت أليس أنها تحوّلت إلى شخص لا تريد أن تكونه، وإنها لن تعود ثانية إلى فوق الأرض، إذا اكتشفت أنها أصبحت شخصا غير مرضي عنه بشكل خاص.

وما أن بدأت تشعر بوحدة شديدة، حتى رأت أنها قد ارتدت بشكل لاواعي قفازي الأرنب، اللذين كانا شيئا شديد الغرابة لشخص طوله تسعة أقدام. تيقنت أليس أنها لابد قد انكمشت قليلا، وأنها ما تزال تنكمش. وحين تأكدت أن المروحة هي السبب، أسقطتها من يدها قبل أن تتلاشي تماما، وجرت باتجاه الحديقة، لكن الباب كان مغلقا ثانية، ومازال المفتاح على المائدة الزجاجية. لم يتحسن موقفها، وقد أصبحت الآن صغيرة تماما.

كانت شديدة الصغر لدرجة أنها سقطت في دموعها نفسها، التي جرفتها أولا كما لو إلى بحر. وكانت خائفة من أن تغرق. عبرت بفأر وهي تسبح، فحاولت أن تكلمه، لكنه لم يجبها حتى بدأت تتحدث باللغة الفرنسية. ولسوء الحظ، لم تكن أليس تعرف سوي أول جملة تعلمتها من كتاب دروس اللغة الفرنسية، والتي كانت "أين قطتي؟". كان الفأر مستثارا، وأخبرها(باللغة الانجليزية) أنه لا يحبّ القطط على الإطلاق، فعارضته أليس وهي تخبره عن مدي مهارة قطها "دينه"، في إمساك الفئران. وحين طلب تغيير الموضوع، بدأت أليس تتحدث عن كلب. بدأ الفأر يعوم مبتعدا عن أليس بقدر ما يستطيع بعد أن نال كفايته من الحديث حول الحيوانين، فوعدته أليس ألاّ تعاود الحديث عن القطط والكلاب، فعاد الفأر وأخبرها أنه سيشرح لها عندما يصلان إلى الشاطئ لماذا يكره القطط والكلاب. سبحت أليس باتجاه الشاطئ، متبوعة بعدد من الحيوانات، والطيور، التي سقطت أيضا في بحيرة الدموع.

* * *

تجمعت الحيوانات والطيور وأليس المبتلة على الضفة، وحاولوا أن يفكروا في كيفية تجفيف أنفسهم. ثرثرت أليس بارتياح مع هذه الصحبة،

ودخلت في جدل مع أحد الطيور. أخيرا، أعلن الفأر أنه سيجعل أي فرد يجف بأن يحكي لهم أجفف قصة يعرفها، وهي تاريخ وليام الغازي، وبدأ يتقدم في سرد حكاية طويلة مملة، على الرغم من عديد من المقاطعات.

دخلت البطة والفأر في جدل حول معني كلمة "هى"، فتعجب فرخ العقاب قائلا: "تحدث باللغة الإنجليزيةّ..لأنني لا أعرف نصف هذه الكلمات الطويلة، ولا أظنّك أنت أيضا تعرف معناها!".

لم تتحسن درجة جفاف أي منهم، فعرض طائر الدودو بدلا من ذلك، أنهم ينبغي أن يشاركوا جميعا في سباق جماعي، ورتّبهم طائر الدودو على شكل دائرة، وبدأ كلّ منهم الجري والتوقف عندما يريد.

أخيرا عندما جفّ الجميع، أعلن طائر الدودو أن السباق قد انتهي. وحين سألوه عن الفائز، فكّر بعمق قبل أن يقرر أن الجميع قد فازوا، ولذلك يجب أن يحصلوا على جوائز، ستهديها لهم أليس. كان لدي أليس في جيبها حلوي تكفي الجميع، ماعدا نفسها. كما أهدت كشتبان كان في جيبها أيضا. لقد وجدت الأمر كله عبثيا تماما، لكنها كانت حريصة ألاّ تضحك أو تزعج أي فرد.

ذكرت أليس الفأر بأنه وعدها بأن يخبرها عن السبب في أنه يكره القطط والكلاب، وقد أجاب الفأر بواحدة من كثير، كثير من التوريات التي وردت في هذا الكتاب، أن حكايته طويلة وحزينة. إنه يروي تاريخه، الذي تصورته أليس على شكل ذيل. كان الفأر يعي أنه يحكي حكاية، وليس ذيلا، لذلك حين أخبر أليس بامتعاض أنه لم يسرد الحكاية بالشكل الذي تخيلتها به، فكّرت أليس بأنه يتحدث عن عقدة في ذيله، واتهمته بأنه يقول كلاما فارغا تماما. ابتعد الفأر متشامخا مغضبا، وتمنت أليس لو أن قطها دينه كان حاضرا ليقتنصه. كانت حكايات أليس عن قطها دينه، أو

مهارات اصطياد الفئران حكايات مألوفة عند بقيّة المجمــوعة، لأنهم كانـوا مع الكلب، لذلك سرعان ماوجدت أليس نفسها وحيدة، وبدأت تبكي نتيجة شعورها بالوحدة.

***

ظهر الأرنب الأبيض، وهو يبحث عن قفازه ومروحته. حاولت أليس أن تجدهما من أجله، لكنها وجدت أن كلّ شيء قد تغّير منذ أن سقطت في بركة الدموع. لم تعد القاعة والمائدة الزجاجية والباب الصغير، مرئية في أي مكان. رأي الأرنب الأبيض أليس، وظنّها بالخطأ خادمته ماري آن، فوبّخها لوجودها في هذه الأنحاء ،وأرسلها إلى البيت كي تحضر قفازين جديدين ومروحة. كانت أليس شديدة الخوف من أوامره، لدرجة أنها جرت مبتعدة دون أن تخبره أنها ليست خادمته.

وجدت أليس لحسن حظها بيتا، قرأت على بابه "الأرنب الأبيض"، فهرولت داخلة لتجد الأشياء التي طلبها الأرنب، وتخيّلت كيف يكون الأمر لو أن دينه أمرها بهذا الأسلوب، وتخيّلت حوارا مع قطها. وجدت في منزل الأرنب مروحة، وبعض القفازات، وزجاجة صغيرة أيضا. وعلى الرغم من أنه لم يكن مكتوبا عليها "اشربني"، فقد شربت أليس السائل، لأنه كان يحدث شيء مثير في الوقت الحالى كلما أكلت أو شربت أي شيء. أملت أن تنمو في الحجم مرة أخري، لأنها مازالت صغيرة بسبب الترويح عن نفسها في قاعة الأبواب. وسرعان ما نالت أليس ما تمنت، حين راحت تنمو في الحجم، لدرجة أنها لم تعد مناسبة لداخل بيت الأرنب، واستمرت في النمو. لكن لحسن الحظ توقف نموها، قبل أن تصاب بأذي، بعد أن أصبحت غير مرتاحة على الإطلاق.

انحشرت أليس وهي في موقعها الخطر، بداخل بيت الأرنب الذي سبق أن أمرها. لم تستطع أليس أن تساعد، لكنها اعتقدت أنها من الأفضل لو كانت في البيت، حيث تحدث الأشياء المعتادة، وتيقنت أنها قد حصلت على بعض مغامرات مدهشة، ربّما تكتبها حين تكبر، وكانت قلقة من أنها منذ تضخمت بقدر ما تستطيع، فإنها لن تكبر أكثر في العمر، وسيظلّ متوجّبا عليها أن تتعلم دروس المدرسة إلى الأبد.

بعد فترة سمعت أليس صوتا من الخارج ينادي: "ماري آن". لقد وصل الأرنب إلى البيت، وراح يصعد السلالم. لم يستطع الأرنب دخول الحجرة التي فيها أليس، لأنها كانت قد سدّت الباب تماما.

قرر الأرنب أن يدخل من النافذة، لكن أليس ضربت بيدها إلى الخارج. خاف الأرنب، وقرر أن تلك الفكرة لن تصلح، لذلك نادي على الخفاش بات، وطلب منه أن يخبره عمّا يمنعه من الدخول من النافذة. ألقي بات (البستاني) نظرة، وأخبر الأرنب أنّه من الواضح أن هناك ذراعا كبيرا. كان الأرنب يرغب في التخلص من هذا الوافد المزعج إلى بيته، وكانت أليس تريد أن تخرج من البيت أيضا.

نادي بات على بيل، السحلية التي أمرها الأرنب أن تهبط من المدخنة. كان قدما أليس قد التصقتا وسدَّتا المدخنة، بعد أن ضربت بقدمها حين سمعت بيل وهي تزحف هابطة. انفجرت السلحفاة منفعلة على الأرض، وأعلن الأرنب أن الشيء الوحيد الباقي فعله هو هدم المنزل حرقا، فهددته أليس أنه إذا فعل ذلك، فإنها سوف تطلق وراءه قطها دينه. وهكذا انتفت خطة الحرق.

وسرعان ما بدأت المخلوقات بالخارج في رمي حصي على أليس، لكن سرعان ما كان يتحوّل الحصي إلى كعك صغير بمجرد أن يلمس الأرض،

فأكلت أليس واحدة، فانكمشت في الحجم، وخرجت من البيت، وهربت من مجموعة الحيوانات، التي أرادت أن تهاجمها.

عند هذه النقطة، وضعت أليس خطة. أولا، يجب أن تعود إلى حجمها الصحيح (لأنها مرة أخري كانت صغيرة جدا). ثم ينبغي أن تجد طريقها إلى الحديقة الجميلة. كان الشيء الوحيد الخطأ في هذه الخطة، هو أنه لم تكن لديها أية فكرة عن كيفية إنجاز أي جزء منها.

سمعت أليس نباحا فوق رأسها، فرأت جروا ضخما يختلس النظر إليها، محاولا أن يلمسها.. حاولت أن تهدّئ الجرو، لكنها كانت خائفة من أنه قد يكون جائعا فيأكلها، فرمت عصا صغيرة، راح الجرو يلهو بها، محاذرا من أن يدوس عليها، بينما انطلقت أليس مسرعة مبتعدة بقدر ما تستطيع.

روّحت أليس عن نفسها، رغم تألمها من أنها ليست في الحجم الصحيح لتلعب مع أو تعلم الجرو. ولتأكدها من ضرورة أن يكبر حجمها فعلا، قررت أنها تحتاج إلى التعرّف على ما تأكله أو تشربه ممّا يسبب التغيّر في حجمها. لا شيء يقدم نفسه، ولكن أليس لاحظت وجود فطر المشروم، الذي كان في طولها نفسه. تفحّصت ما تحته، وما حوله، وما وراءه، ولم تر شيئا. وحين شبت لتنظر إلى قمته، وجدت نفسها تحملق في عيني يسروع كبير أزرق. لم يلاحظ ذلك اليسروع أليس على الإطلاق، لكنه استمر جالسا على فطر المشروم، وهو يدخن نارجيلة طويلة.

تبادل اليسروع وأليس النظر كلٌّ إلى الآخر لفترة طويلة، حتى طلب اليسروع أخيرا بصوت ناعس أن يعرف من هي أليس. حاولت أليس بحياء أن تجيبه ، رغم أنها كانت تعرف من هي عندما نهضت في الصباح، لكنها كانت متأكدة تماما من أنها تغيّرت عدّة مرات منذ ذلك الحين. أمرها

اليسروع أن تفسّر حالتها، وماذا تعني بمثل تلك الملاحظة. أجابت أليس: "إنني لا أستطيع أن أفسّر نفسي، فأنا خائفة يا سيدي، لأنني لست نفسي كما ترى". لم تضف كلماتها أي جديد لليسروع، الذي لم يكن يعتقد أن تغيير الحجم مرة أخري قد يكون مثيرا للبلبلة.. ذكّرته أليس أنه سيكون أمرا غريبا إذا ماتحوّل إلى طور معـين كالخادرة من أطوار نموّه ، ثم إلى فراشة. لكن اليســروع لم يوافقها الرأي، وقدرت أليس أن مثل هذه التغييرات تبدو غريبة لها.. لكن اليسروع عاد يسأل: "من أنت؟".

تضايقت أليس لعودة الحوار بشكل غير مرضٍ إلى نقطة البداية، فأخبرت اليسروع أنه ينبغي أن يخبرها أولا عمن هو. جعل اليسروع من: "لماذا؟" إجابة سريعة ، وهو ما أثار غضب أليس. نادي عليها اليسروع ثانية، ليخبرها بأمر هام، قدّمه كنصيحة إلى أليس، هو أن تحافظ على أعصابها. استمر اليسروع بعد مضي بعض الوقت، وبعض نفثات من النارجيلة، يسأل أليس: لماذا تعتقد حقا أنها تغيّرت.. أصرّت أليس على أن ذلك ما حدث لها. كانت تعرف ذلك، لأنها لم تستطع أن تتذكر الأشياء بالطريقة التي اعتادتها ، ولأنها تغيّرت مرارا وتكرارا في الحجم. حين سألها عمّا هي الأشياء التي لا تستطيع أن تتذكرها بوضوح.. أجابت أليس بأنه تسمّع محفوظات الأطفال كلها بشكل خاطئ.

اقترح اليسروع على أليس أن تسمع "أنت عجوز، أيها الأب وليام"، وبدأت أليس تسمّع فكان ما قالته محض هراء. وحين انتهت، عقب اليسروع بأن تسميعها ليس صحيحا، وسلمت أليس بأن تسميعها ليس صحيحا تماما، لأن بعض الكلمات قد تغيّرت عن المعتاد، فأجاب اليسروع أن نصّها كان خاطئا منذ البداية إلى النهاية، ثم ســأل أليس عن الحجم الذي ترغب أن تكون به. قالت أليس : إنه لا يهم ما هو الطول بالضبط،

لكنها لا تحبّ التغيّر المستمر، كما يعرف اليسروع. قال اليسروع أنه لا يعرف، وبدأت أعصاب أليس تثور ثانية.

أخبرت اليسروع أنها تريد أن تكون أكبر قليلا، وأزعجته بإخباره أن ثلاث بوصات (نفس طوله) هو طول مزعج بالنسبة لها. وسرعان ما قرر اليسروع أن يبتعد عن أليس، هابطا عن فطر المشروم، زاحفا إلى بعيد. وبينما كان يمضي، عقّب بأنه إذا أكلت من أحد جانبي الفطر سيجعلها ذلك أطول، بينما الجانب الآخر سيجعلها أصغر.

أمضت أليس وقتا صعبا في استكشاف أي جانب من فطر المشروم المستدير هي المطلوبة، لكنها في النهاية قطعت فجأة قطعا من الحافة بيد من يديها، وتناولت حفنة، فشعرت فجأة بأن ذقنها تلمس قدميها ثانيـــة، بينما انطلـقت رأسـها عاليا، لكنها سرعان ما تأكدت من أنها لا تري كتفيها أسفل ذؤابات الشجرة، التي تحيط برقبتها، فتيقنت بأن هناك فكرة أفضل، بأن تحرك رأسها كثعبان، للتعرف على ما حولها.

سمعت هسيس حمامة خافت من أليس، لأنها ظهرت كثعبان، واستمرت تعتبرها كذلك رغم احتجاجات أليس، وراحت تصيح: "تلك الثعابين! لا يوجد أبدا ما يسرها!".

حاولت أليس أن تخبر الحمامة أنها ليست ثعبانا، بل بنتا صغيرة، ولكنها لم تعد متأكدة من أنها ما تزال بنتا صغيرة، بعد حدوث كل تلك التغيرات في يوم واحد. تركت أليس الحمامة أخيرا، وهي تخبرها بأنها لا تريد أن تأكل بيض الطيور. عندئذٍ تذكرت قطع فطر المشروم، وبدأت في تناول قطعا من الجانب الآخر من يدها الأخري، حتى رجعت أخيرا إلى طولها المعتاد.

بدا طول أليس المعتاد، في البداية غريبا، ولكنها كانت سعيدة لإنجازها الجزء الأول من خطتها، وأصبحت تحتاج الآن فقط إلى الدخول إلى

الحديقة. بينما كانت تتساءل عن كيفية تحقيق ذلك.. وصلت أليس إلى بيت صغير ارتفاعه أربعة أقدام، ومنذ عرفت أنها أطول من أن تقابل أيّا ممن يعيشون في مثل هذا المنزل، أسرعت بتناول قطعة من فطر المشروم، الذي بيدها اليمني، حتى وصلت إلى طول تسع بوصات.

* * *

وبينما كانت أليس تفكر فيما إذا كان ينبغي أن تدخل المنزل، شاهدت خادما (أو بالأحري سمكة مرتدية ملابس خادم) قادمة وهي تهرول من الغابات، نحو المنزل، وسرعان ما راحت تطرق على بابه. فتح الباب خادم آخر (كان ذلك في النهاية ضفدعا). أخرج الخادم السمكة رسالة ضخمة، أعلن أنها دعوة إلى الدوقة من الملكة كي تلعب الكروكيه.

تناول الخادم الضفدع الرسالة، وانحني كلّ من الخادمين للآخر، حيث تشابكت معا لفات شعرهما المستعار المتبرج.. اضطرت أليس أن تبتعد قليلا، حتى يظلا بعيدا عن رؤيتها وهي تضحك على ما يجري.

رجعت أليس تطرق على الباب،الذي كان مغلقا مرة أخري. كان الخادم الضفدع جالسا بالخارج قرب الباب، فأخبرها أن من العبث أن تطرق الباب، لأنه موجود على نفس جانب الباب الموجودة فيه، ولأنّ كل الموجودين بالداخل يسببون ضوضاء، بحيث لن يسمعها أحد أبدا. وفعلا كانت أليس تسمع نباحا ثابتا وعطسا وتحطيما لكل أدوات المطبخ، فسألت الخادم الضفدع عن كيفية الدخول. لم يكن الخادم متعاونا، وقرر أنه سيظلّ فقط بالخارج حتى اليوم التإلى: عندئذٍ فقط فتح الباب، وطار منه طبق كبير، تجاهله الخادم، وسألت أليس ثانية عن كيفية الدخول، فأخبرها الخادم أن السؤال الحقيقي ينبغي أن يكون إذا ما كان يتحتم عليها ألّا تدخل على الإطلاق.. كانت أليس تعرف أن هذا صحيح، ولكن ضيقها

كان يتزايد من الأسلوب الذي تتجادل به المخلوقات من حولها. وانتهي الخادم إلى نتيجة أنه سيظلّ جالسا فقط بالخارج لعدة أيام.

رأت أليس أنّ أيّة محادثة أخري مع الخادم تعتبر عديمة الجدوي، وفتحت الباب ودخلت.. وجدت نفسها في مطبخ مليء بالدخان، وبدأت تعطس، لأن الهواء كان ممتلئا بالفلفل. كانت الدوقة في المطبخ ترعي طفلا، وكان الطاهي يقلب حساء مفلفلا جدا، وقط يبتسم. أخبرت أليس الدوقة بأنها لا تعرف أي قطط أخري تبتسم بملء فمها مثل ذلك القط، فأخبرتها الدوقة أن ذلك هو قط من نوع "شيشير"، وأضافت أن أليس لا تعرف عنه الكثير. فجأة بدا الطاهي بدفع كل شيء بالمطبخ نحو الدوقة والطفل.

خشيت أليس من أن يقتل الطفل، فرجت الطاهي أن ينتبه إلى مايفعل، وهو ما منح الدوقة الفرصة في أن تعرض إحدي حِكمها أو أمثلتها الأخلاقية: "إذا اهتم كل فرد بشئونه .. سيمضي العالم دائرا في مساره بشكل أسرع مما يفعل". كانت أليس واثقة من أن ذلك ليس هو الفعل المناسب، فانتهزت الفرصة لتعرض متباهية بعضا من معلوماتها بشرح مشكلات دوران العالم البالغة الدقة. لم تكن الدوقة تريد أن تسمع أي شيء من ذلك، فهددت أليس بقطع رأسها، ثم بدأت تغني للرضيع، وتهزّه بعنف. ثم رمت بالطفل إلى أليس، وهي تخبرها أنه يمكنها أن تعتني بالطفل إذا أرادت، طالما أن الدوقة تحتاج إلى أن تستعد للعب الكروكيه مع الملكة.

قررت أليس أن تأخذ الطفل بعيدا معها قبل أن تقتله الدوقة أو الطاهي.. وفجأة رأت قط "الشيشير" جالسا في شجرة. ابتسم القط لها، فسألته مترددة: إلى أين تمضي تاليا؟، فأجاب القط بأن ذلك يتوقف على أين تريد أليس أن تذهب، فأجابت بأنها لا تهتم إلى أين تمضي، طالما أنه إلى مكان

ما، فأكّد لها القط بأنها مرتبطة بأن تذهب إلى مكان ما، إذا ما سارت طويلا بشكل كاف في أي اتجاه.

جربت أليس خطة أخري، حين استفسرت عن نوع البشر الذين يعيشون في هذه الأنحاء.. أشار القط إلى اتجاه محدد، قائلا: هناك يعيش "ماد هاتر"، وفي الاتجاه الآخر يعيش "مارس هير". ثم أوضح القط أن كليهما مجنون متحمس. أصرت أليس أنها لا تريد أن تكون بين أناس مجانين، فأصر القط: "إننا جميعا مجانين هنا"، و حتى أليس تعتبر مجنونة، وإلاّ ما كانت قد أتت.

استمر القط يسأل أليس عمّا إذا كانت ستلعب كروكيه مع الملكة، وإذا كان الأمر كذلك، فإنها ستراه هناك. وسرعان ما اختفي القط وتلاشي، ثم عاد إلى الظهور متسائلا عمّا حدث للطفل.

حاولت أليس أن تقرر ما إذا كان من الأفضل أن تزور "ماد هاتر" أم" مارس هير" أولا؟. ثم خمنت أن "مارس هير" ربّما لن يكون مجنونا تماما طالما أن الشهر هو مايو وليس مارس. عاد القط إلى الظهور ثانية، فعبّرت أليس عن ضيقها بميل القط للظهور والاختفاء فجأة، لذلك تلاشي القط هذه المرة ببطء، بادئا باختفاء ذيله ومنتهيا بابتسامته، التي بقيت معلقة في الهواء لوهلة بعد أن اختفت بقيته .

مضت أليس في طريقها حتى وصلت إلى منزل "مارس هير"، الذي أمكنها أن تعرفه، لأن البيت نفسه كان يشبه رأس أرنب.. رأت أنها أيضا صغيرة جدا بالنسبة لهذا البيت، فتناولت قطعة من يدها اليسرى من فطر المشروم، حتى أصبح طولها قدمين، فمشت إلى البيت وهي ترتعش.

***



كان "مارس هير" و"ماد هاتر" يتناولان الشاي خارج المنزل، بينما ينام بينهما حيوان الزغبة القارض. اقتربت أليس، لكن الآخرين صاحا أنه لا يوجد مكان، حتى للجلوس إلى مائدة كبيرة جدا.. ادعت أليس ساخطة وجود أكثر من مكان، وسرعان ما جلست بنفسها إلى المائدة، ووجدت أن "ماد هاتر" و"مارس هير" شديدا القسوة، ولكنهما ذكّراها أنه من القسوة أن تنضم إليهما دون دعوة.

سأل "هاتر" أليس عن حلّ لغز: "لماذا يشبه الغراب الأسود مائدة الكتابة؟"، فقالت أنه يمكنها أن تخمن، وهو ما سبب بعض التشوّش في جانب "هاتر". أصر "هاتر" على أن أليس ينبغي أن تقول ما تعني، فأجابت بأنها تعني ما تقول. لم يوافق هاتر، لأنه للمثال، عن النظر ورؤية ما يأكله فرد، فإنه لن يكون الشيء نفسه مثل تناول ما يراه الفرد.

سأل "هاتر": أي يوم من الشهر هو اليوم؟. وحين اكتشف أن ساعته أقل بيومين، ذكر "مارس هير" بغضب أنه لم يظنّ أن فكرة "هير" في استخدام الزبد لإصلاحها كانت فكرة جيدة. نظرت أليس إلى الساعة جيدا، فرأت أنها ساعة غريبة.. كانت تحدد اليوم من الشهر، ولا تحدد الزمن.. أخبرها "هاتر" أن هذه الساعة عادية تماما، لأنه لا ساعته ولا الساعة التي تستخدمها أليس تحدد السنة.. كانت أليس متأكدة تماما من أن ملاحظته لا معني لها مهما تكن، حتى لو فهمت كلماتها منفردة.

حين سألها إذا كانت قد حلّت اللغز، كان على أليس أن تعترف أنه لم تكن لديها أية فكرة. قال كل من "الهاتر" و"الهير" أنهما أيضا ليس لديهما أية فكرة، أكثر من حزن أليس.

قالت أليس لهما: إن الألغاز مضيعة للوقت، فبيّن "الهاتر" أن من الأفضل لها أن تحافظ على علاقة طيبة مع الزمن، فقد ثبت أنه تشاجر مع

الزمن حين شارك في كونشرتو من أجل ملكة القلوب.. كان عليه أن يغني: "تلألأ، تلألأ، أيها الخفاش الصغير،كم أتعجّب ممّا أنت فيه". كم كرهت الملكة أداءه، وقالت إنه قد قتل الزمن.. ومنذ ذلك الحين، فإنها دائما تمام السادسة للهاتر، وقت تناول الشاي.

اقترح "مارس هير"، الذي أمرضته المحادثة، أن تحكي قصة.. ولكنها لم تكن تعرف أيّا منها، لذا أيقظ "الهاتر" و"الهير" حيوان الزغبة، وهكذا حكي الدورموث قصة عن ثلاث أخوات يدعون: السي، ولاسي، وتيلي، كنّ يعشن في قاع بئر ويأكلن دبس السكر.

سارع "الهير" إلى سؤال أليس إذا كانت ترغب في مزيد من السكر؟.. أجابت "أليس" متضايقة: "إنني لم أحصل على أي سكر بعد. لذا لايمكنني أن أطلب المزيد". عندئذٍ قال الهاتر: "تعنين أنك لاتستطيعين أخذ أقلّ. إنّ من السهل تناول زيادة أفضل من لا شيء". كانت أليس الآن تتساءل عن السبب في أن تعيش تلك الفتيات في قاع البئر.. بعد قليل من التفكير، أعلن الدورموث أنه كان بئر دبس سكر. اعترضت أليس بأنه لا يوجد مثل هذا البئر، فهدد الدورموث بأن ينهي الحكاية إذا لم تتوقف مقاطعته. قاطعه "الهاتر" حين قرر أنه يحتاج إلى تنظيف كوب، وأن على كلٍ فرد أن ينتقل من مكان واحد.. استمرت أليس تستعجل تفاصيل القصة التي يحكيها الدورموث، لكن الدورموث نظم أن يجعلها تخلد الصمت بواسطة سلسلة من توريات وتعبيرات غريبة.

أخيرا أصبحت أليس مزدراة بسبب من قساوة رفقائها الثلاثة، فأقسمت لنفسها أنها لن تعود إليهم أبدا، ومشت مبتعدة بشموخ، وسرعان ما فوجئت بشجرة مع باب فيها، فقررت أن تدخل دون تفكير.. وجدت في الداخل قاعة طويلة ، وهناك مائدة زجاجية عليها مفتاح ذهبي أخذته

أليس، مفضّلة أن تستعدّ هذه المرة، وفتحت الباب الذي يؤدي إلى الحديقة، ثم تناولت بعضا من فطر المشروم، حتى أصبح طولها قدما، ودخلت إلى الحديقة الجميلة.

***

كانت توجد في داخل الحديقة شجرة ورد ضخمة ذات براعم بيضاء.. وكان هناك ثلاثة من البستانية يلوّنون بجهد الورد الأبيض باللون الأحمر.. حين شاهد البستانية أليس انحنوا لها. سألتهم أليس عن السبب في تلوين الورد، فأجاب أحدهم بقوله: إنّ الشجرة كان ينبغي أن تكون شجرة ورد حمراء وليست بيضاء، لذلك يلونّون الورد حتى يتفادوا غضب الملكة، التي ستطيّر رءوسهم.. فجأة لمح البستانية الملكة تعبر الحديقة، فرموا بأنفسهم منبطحين على الأرض.

كان في حاشية الملكة عشرة جنود يحملون هراوات، ثم كان هناك عشرة أولاد مزيّنون بقلوب، ثم كانت هناك مجموعة ضيوف تشتمل في الأغلب على ملوك وملكات، ولكن كان هناك أيضا الأرنب الأبيض. ثم جاء الشايب، وأخيرا ظهر ملك وملكة القلوب.. عندئذٍ انبطح أرضًا كل الجنود، والأولاد، والملوك، والملكات.

حين وصل الموكب إلى أليس، توقفوا جميعا، ونظروا إليها، حتى طلبت الملكة أن تعرف من تكون.. أخبرت أليس الملكة باسمها، وهي تعيد التأكيد لنفسها أنها لا يجب أن تكون مرعوبة، طالما أن الصحبة ليست شيئا سوي مجموعة من كروت اللعب. أشارت الملكة إلى البستانية المنبطحين أرضا، وسألت أليس عمّن يكونون، وحين أخبرت الملكة أنها قد لا تعرف، لأن هذا ليس من شأنها، ثار غضب الملكة، وصاحت: "أطيحوا برأسها!"، لكن أليس أخرستها، وهي تقول لها ثانية بأنها لا شيء.

حاول ملك القلوب أن يهدّئ زوجته، ولكنها ظلت ثائرة، فحوّلت الملكة هجومها إلى وجوه الكروت المنكفئة، مجبرة إيّاهم على النهوض.

أرادت أن تعرف ماذا يفعلون، لكن قبل أن يجيبوا أمرت بأن تقطع رءوسهم، فأخفت أليس الكروت حتى تنقذها من هذا المصير، لذلك حين سألت الملكة جنودها ما إذا كانت رءوس الكروت المذنبة قد طارت، أجاب الجنود بثقة بالإيجاب.

كان ذلك ما حدث، ثم استدارت الملكة لأليس وسألتها عمّا إذا كان يمكنها أن تلعب الكروكيه، فأجابت بالموافقة، وهكذا تحرّك الجمع باتجاه أرض الكروكيه. وحين لاحظت أليس أن الأرنب الأبيض إلى جوارها، سألته: أين الدورموث، فأخبرها بأنه قد حكم عليه بالإطاحة برأسه بسبب تأطير أذني الملكة، وهو ما وجدته أليس شيئا مرحا، لكن قبل أن تكتشف المزيد، بدأت مباراة الكروكيه. لم تر أليس أبدًا مثل هذا الموكب الغريب الذي أقيم من أجل الكروكيه: كانت الأرض غريبة، والكرات من قنافذ حيّة، والمطارق الخشبية من طيور مائية حيّة.. كما ربطت بعض الكروت معا كي تصلح كمداخل صغيرة.

تحوّلت هذه النسخة المعدلة من الكروكيه لتكون شيئا صعبا بشكل غير عادي، طالما أن القنافذ ترفض أن تظلّ ملفوفة على شكل كرة، وبدت الطيور المائية مشوّشة تماما بكل تلك المباراة، كانت كلها أقل يسرا في تنظيمها من القنافذ. وكي تصعب الأمر أكثر على أليس، لعب الجميع فورا دون أن ينتظر أي منها دوره. وسرعان ما أصبحت الملكة ثائرة ومحبطة، وأصدرت أوامر ثابتة بقطع رأس كل شخص تقريبا، وهو ما جعل أليس قلقة، لذلك فكرت في أنّه قد يكون من الأفضل أن تفرّ قبل أن تغضب الملكة منها.

حين بحثت أليس عن طريق للهرب، رأت شيئا غريبا في الهواء. كان ظهورا لشيء سرعان ما تحوّل إلى قط شيشير مبتسم، فسألته: كيف يفعل ذلك . أخيرا ظهر كل رأس القط ، فاشتكت أليس أنها لا تعتقد أن لهذه المباراة أي قواعد، وإذا كان الأمر كذلك، فلن يتقيّد أحد بالعدل، واستمرت تخبر القط أنها لا تحبّ الملكة على الإطلاق، ولكنها حين رأت الملكة تمشي قريبا منها، تظاهرت بأنها تمتدحها.

وسرعان ما مشي الملك بجوارها، وسألها عمّا هي رأس القط المرفرفة تلك، في حين لم يحب أن ينظر إليها، وأعلن عن ضرورة إزالتها.. حاولت الملكة أن تعالج الأمر بالأسلوب الوحيد الذي تعالج به كل شيء، فأمرت بأن تقطع رأس القط. رجعت أليس ثانية إلى المباراة لوهلة، لكنها ظلت مشوّشة ومكتئبة.. التفتت إلى القط شيشير، فوجدت حشدا يحيط به، يتجادل عمّا إذا كان ينبغي أن يقطع رأسه أم لا، خاصة وأنه لم يكن هناك جسم للبدء به. وقع الأمر على أليس كيْ تعالج هذا النزاع، فقررت أنه طالما أنه كان قط الدوقة، فلابد من سؤال الدوقة أولا. ولكن قبل إحضار الدوقة من السجن، اختفي القط كلية، ورجع الحشد، الذي لم يجد شيئا أفضل يفعله، إلى مباراة الكروكيه.

***

كانت الدوقة شديدة السعادة لرؤية أليس، فسارا معا متشابكي الذراعين، فتاهت أليس في التفكير، لدرجة أن الدوقة حاولت أن تجد تفسيرا لصمت أليس الحكيم.

غامرت أليس بالقول: "ربما لم يكن أحدا.. " فأجابتها الدوقة : صمتا، صمتا، أيتها الطفلة، فكلّ أمر يتحول إلى حكمة، إذا أمكنك فقط إيجادها".. واستمرت الدوقة تجد حِكَما في كل شيء تقوله أليس.. كانت

حِكَمها غالبا تعتمد على توريات، ولا تؤدي إلى معني فعلى، على الرغم من نصيحتها بأن "تحافظ على المعني، وستهتم الأقوال بنفسها".

توقفت الدوقة عن الزقزقة حين ظهرت الملكة، وهددت بقطع رأسها إذا لم تنصرف. رجعت أليس، وهي خائفة تماما، إلى مباراة الكروكيه مع الملكة، ورجعت الملكة إلى التهديد بقطع رأس أي فرد يلعب . كانت الملكة تأخذ راحة فعلا من أحكام الموت، لتسأل أليس إذا ما كانت قد تجوّلت لمقابلة السلحفاة الساخرة، التي هي بطبيعة الحال، الشيء الذي يصنع منه "حساء السلحفاة الساخرة". وطالما أن أليس لم تكن لديها فكرة عمّن تكون السلحفاة الساخرة، فإنّ حُجّاب الملكة أخذوها لمقابلتها، وقام الملك أثناء غياب زوجته بالعفو عن الجميع.

حين وصل حيوان الجريفون الخرافي، الذي كان نصفه نسر ونصفه أسد.. أيقظته الملكة وأمرته أن يأخذ أليس كي تسمع السلحفاة الساخرة، وهي تحكي لها تاريخها، فربّما تعرف من هي السلحفاة الساخرة. حين انصرفت الملكة حتى تحضر تنفيذ أحكام إعدامها، كان الجريفون في تلك اللحظة قد بدأ يقوّق، وهو ما جعل أليس مشوّشة.. كان مستمتعا بتصرف الملكة، لأنه كان يعرف أنه لم تنفذ بالفعل أبدا أي أحكام إعدام.

ثم قاد الجريفون أليس إلى السلحفاة الساخرة، التي كانت مشغولة بعمل ضوضاء تنهّد جديرة الشفقة، فسألت أليس الجريفون عن السبب في أنّ السلحفاة الساخرة شديدة الحزن، فأوضح أن السلحفاة الساخرة ليست لديها أية أحزان، لأنّ الأمر كله يكمن في رأسها هي.

قدم الجريفون أليس، بلهجة أحد أبناء لندن، إلى السلحفاة الساخرة، طالبا منها أن توافق على أن تحكي لها قصتها. وبعد وقت طويل بدأت بشرح أنه كان لديها ذات مرّة سلحفاة فعلا. وسرعان ما بدأت تنشج.

خشيت أليس أن تكون تلك هي كل القصة، لكن ما أن تمالكت السلحفاة الساخرة نفسها قليلا، حيث بدأت بالقول إنها كانت قد ذهبت إلى مدرسة في البحر، وتعلمت بواسطة سلحفاة عجوز، كان يسميها الجميع "تورتويز". كانت أليس تريد أن تعرف السبب في تسمية مدرسة "تورتويز" إذا لم تكن كذلك، فأخبرتها السلحفاة الساخرة، وهي متضايقة: "نحن سميناها تورتويز، لأنها تتسم بالاتزان والحكمة". كان كل من السلحفاة الساخرة والجريفون مندهشين من جهلها وجعلاها تشعر بخجل شديد من قيامها بتوجيه مثل هذه الأسئلة الغبية.

ادعت السلحفاة الساخرة أنها قد تحصّلت على أفضل تعليم. كانت أليس، التي كانت تدرس حتى الآن في المدرسة، مبهورة بها بشكل خاص، لكن حين قارنتا سيرة مدارسهما الذاتية، قررت السلحفاة الساخرة، أنها الأكثر تفوقا، فقد درست مناهج في "القراءة والكتالة"، تماما مثلما درست مقررات الحساب، والطموح، واللهو، والقبح، والسخرية.

لم تكن أليس قد سمعت من قبل أبدا عن مثل تلك المقررات، فطلبت من السلحفاة الساخرة أن تشرح لها معني مقرر "القبح". استاءت الجريفون ثانية من نقص تعليمها ، وأخبرتها أن من الواضح أن "القبح" هو المقابل "للجمال". كما أخبرتها السلحفاة الساخرة بمزيد حول دراسات هذا المقرر. ولقد وضح أن الجريفون قد حصل على تعليم مختلف تماما، فقد علمه سرطان بحر عجوز، كان أستاذا في الدراسات الكلاسيكية، وعلمني "الضحك والحزن".

سألت السلحفاة الساخرة عن مدي طول اليوم المدرسي، فأخبرتها السلحفاة الساخرة أنها ذهبت إلى المدرسة لمدة عشر ساعات في اليوم الأول، ثم تسعا في الثاني، وهكذا استمرّ الأمر، وهو ما بدا شديد الغرابة

بالنسبة لأليس، لكن الجريفون أوضح أن ذلك هو السبب في أن الدراسة تسمي دروسا lessons ،لأنها تقلّ lesson من يوم إلى آخر. اشتد فضول أليس حول هذا النظام، لكن الجريفون غيّر الموضوع، بالتحدث حول مباريات المدرسة.

***

أخبرت السلحفاة الساخرة أليس بعد نشيج مكتوم، أنّها تفترض أنه ليس لديها فكرة عن رقصة سرطان البحر الرباعية، ثم راحت تشرح لها معناها بمساعدة الجريفون. حاولت السلحفاة الساخرة والجريفون أن ينظما رقصة لأليس، بينما كانت السلحفاة الساخرة تغني حول سمك القدّ الأبيض.

استراحت أليس حين انتهي الرقص تماما، لأنها لن تشاهده مجددا، وعقبت بأنها استمتعت بالأغنية حول سمك القدّ الأبيض، متفادية التفكير في أنها غالبا ما كانت تأكله. كما سرّ الآخرون، من أنه بدا أنها تعرف تماما سمك القدّ الأبيض، فسألها الجريفون إن كانت تعرف سبب تسميته بهذا الاسم بشكل خاص. لم تكن أليس تعرف، فأوضح الجريفون أن اللون الأبيض هو لون الأحذية ذات الرقبة والأحذية العادية.. إذ على الأرض، كما يقال، تلمّع الأحذية بالأسود، بينما في البحر تلمّع بالأبيض.

وسرعان ما عاد الجريفون والسلحفاة الساخرة إلى تورياتها ثانية. عرفت أليس أن الأحذية تحت ماء البحر، تصنع من سمك موسي وسمك الأنقليس..

أخبرها الجريفون أن عليها الآن أن تحكي لهما مغامراتها، ولكنها لم تستطع أن تحكي فقط ما حدث اليوم، بل وما حدث من قبل، عندما كانت شخصا مختلفا.

أرادت السلحفاة الساخرة أن تعرف عن التغيّرات التي مرّت بها أليس، ولكن الجريفون كان أكثر اهتماما بمغامرات أليس، وطلب منها أن تبدأ بها.

بدأت أليس تحكي لهما مغامرات هذا اليوم، منذ لحظة أن رأت الأرنب الأبيض، إلى محاولة تسميع "أنت عجوز،أيها الأب وليام"، إلى اليسروع.. اتفق الجريفون والسلحفاة الساخرة على أن تلك حكاية غريبة، ولاختبار عدم قدرة أليس على التسميع بوضوح، طلب الجريفون منها أن تسمع "هذا هو صوت الكسلان".

تضايقت أليس قليلا، من أن جميع من حولها واظبوا على أن يأمروها باستمرار، طالبين منها أن تكرر واجباتها، على أن تبدأ مع ذلك بالتسميع. ومع أن رأسها كانت ممتلئة بكلمات رقصة سرطان البحر الرباعية، لدرجة أنها تذكرت القصيدة كقصة لسرطان البحر:

"هذا صوت سرطان البحر: سمعته يعلن:

لقد طهوتني إلى اللون البني، فينبغي أن أحلّي شعرى".

حين انتهت أليس من المقطع الأول، أخبرها الجريفون أنّ قصيدتها مختلفة تماما عمّا تعلمه عندما كان طفلا. ولم تعرف السلحفاة الساخرة النصّ الأصلي أبدا، لكنه وافقت على أن ما سمعته كان "كلاما فارغا غير مألوف".. تساءلت أليس عمّا إذا كان أي شيء سيحدث بشكل طبيعي مرة أخري، وطلبت منها السلحفاة الساخرة أن تشرح لها أصل قصيدتها، ولكن الجريفون عرف أنها لن تستطيع. ظلت السلحفاة الساخرة تطرح أسئلة، لكن أليس نفسها كانت مشوّشة تماما بأن ما سمعته لن يمكنها أن تقدم له تفسيرا جيدا، وكنتيجة لاستعجال الجريفون، انتقلت إلى المقطع الثاني.

أصبحت السلحفاة الساخرة مستاءة تماما، لأنها لم تفهم معني ما تسمعه أليس، فقالت إنها إذا لم تشرح كما تسمع فعليها أن تتوقف.. كانت أليس سعيدة فقط أن تنتهي.. عندئذٍ غنّت السلحفاة الساخرة أغنية أخري، بعنوان: "حساء السلحفاة"، بأسلوبها المنتحب.

بعد عدّة مقاطع، سمع صوت صارخ من بعيد يعلن ابتداء المحاكمة، فسحب الجريفون أليس من يدها، وبدءا هرولتهما عائدين إلى المحكمة، أسرع وبشكل مختلف، حتى استطاعت أليس أن تسمع أغنية السلحفاة الساخرة: "حساء المساء، الحساء الجميل!".

***

جلس ملك وملكة القلوب (من كروت اللعب) على عرشيهما في قاعة المحكمة، محاطين بحشد ضخم من المخلوقات، وكمّ هائل من كروت اللعب.. وقف الشايب في السلاسل أمام الملك والملكة، وأمسك الأرنب الأبيض بوقار رأس كمنجة قريبا منه. كما عرضت في منتصف القاعة كعكات محشوة بالمربي على طبق كبير. لم تحضر أليس في محكمة للعدل من قبل أبدا، ولكنها قرأت عنها، مما مكّنها بسهولة أن تتعرف الملك كقاضٍ بشعره الأبيض المستعار.

كانت مسرورة تماما بمعرفتها عن المحاكم، حيث كانت قادرة على أن تحدّد هيئة المحلفين، اثني عشر حيوانا وطائرا كانت جميعا مشغولة بكتابة سجلات أعمالها. سألت أليس الجريفون هامسة عمّا يكتبون قبل أن تبدأ المحاكمة، فأخبرها أن المحلفين يسجلون أسماءهم خشية أن ينسوها قبل أن تنتهي المحاكمة.. قالت أليس بصوت بدا مرتفعا قليلا في قاعة المحكمة: "مخلوقات غبية!"، وهو ما دعا الأرنب الأبيض أن يطالب بالهدوء في قاعة المحكمة، بينما سجّل كل المحلفين ملاحظة أليس في سجلات أعمالهم.

تضايقت أليس من صرير قلم رصاص حاد لأحد المحلفين، فتسللت من ورائه، وسرقته (من بيل السحلية، وهو تماما ما حدث)، وقد حاول هذا المحلف أن يكتب طوال بقية اليوم بأصبعه.

بدأت المحاكمة، وقرأ الأرنب الأبيض قرار الاتهام، الذي شابه محفوظات الحضانة قليلا.. عندئذٍ طلب الملك من المحلفين أن يتخذوا قرارهم، فطالب الأرنب الأبيض بضرورة أن تمتد المحاكمة قليلا قبل أن يصدروا حكمهم، وهكذا استُدعي الشاهد الأول "ماد هاتر" للشهادة، فاعتذر لإحضاره الشاي والخبز معه، لأنه لم يكن قد انتهي من تناول الشاي حين استدعوه.. أراد الملك أن يعرف منذ متي بدأ "هاتر" تناول الشاي، فهناك دائما بعض الجدل بين "الهاتر" و"الهير" والدورموث ، ثم طلب الملك من "الهاتر" أن ينزع قبعته.

حين أجاب "الهاتر" بأنها ليست ملكه، أعلن الملك أنه سرقها، لكن الهاتر فسّر الأمر بأن القبعة، مثل كل الأخريات، معروضة للبيع.. ثم طلب الملك من "الهاتر" أن يقدّم دليلا على كلماته، وحذّره من أنه إذا ما ظلّ عصبيا فسيعدم فورا، وهو ما هدّأ قليلا من عصبيته. وفجأة، أصبحت أليس منتبهة إلى أنها بدأت تكبر ثانية. كانت أول فكرة خطرت على بالها، أن تغادر المحكمة قبل أن تصبح مشكلة، ثم قررت أن تمكث بقدر ما تستطيع.

مازال "الهاتر" لم يقدم دليله، وهو ما جعل الملكة تأمر أن يحضروا إلى قاعة المحكمة كل قائمة مجموعة المغنيين في الكونشرتو الأخير، مما جعل "الهاتر" عصبيا أكثر، فكان يحك حذاءه فعلا.. طالبه الملك ثانية بالدليل، فحاول الهاتر أن يشرح ما حدث ذلك اليوم أثناء تناول الشاي، لكن "مارس هير" أنكر كل شيء، وحين سأل عمّا قاله الدورموث لم يستطع الهاتر أن يتذكر.. كان عقاب الفشل في التذكّر هو الموت.

عند هذه النقطة، أصبح الخنزير الغيني مشاكسا وحرونا، مما حمل بعض الموظفين إلى أن يدفعوا الحيوان إلى حقيبة، أغلقوها عليه، ثم جلسوا عليها.. أخبر الملك "الهاتر" حزينا، أنه لا يعرف أي شيء آخر، وأنه يمكنه أن ينزل، أو إذا كان لا يستطيع الوقوف بشكل أكثر انخفاضا، فيمكنه أن يجلس.. فرّ "الهاتر" قبل أن يعدم.

كانت الشاهدة الثانية على المنصة هي طاهية الدوقة، التي رفضت تقديم دليل، وبدا أنّ الملك على وشك أن يسلم بطلبها، لكن الأرنب الأبيض سرعان ما ذكّر الملك أنه جري العرف في المحاكمات على الحصول على بعض المعلومات من كل شاهد، لذلك ضغط على الملك كي يستمر.. أخبرت الطاهية المحكمة أن الكعك المحشو بالمربي الذي صنعته غالبا من الفلفل، وصرخ الدورموث من الخلف بأن الكعك مصنوع من دبس السكر، وأثناء الفوضي التي حدثت نتيجة قمعه، وإخراجه من القاعة، انسحبت الطاهية مبتعدة ،فنادي الأرنب الأبيض الشاهد التإلى، الذي كان أليس نفسها، وهو ما أثار دهشتها بشدة.

* * *

تقدّمت أليس مندفعة، وكانت قد نسيت كم تضخّم حجمها، فأطاحت بكل مقصورة المحلفين، فاعتذرت وأعادت المقصورة إلى مكانها، ثم أعادت وضع المحلفين فيها مرة أخري. رفض الملك أن يستمر إلاّ بعد أن يصبح كل المحلفين في أماكنهم الصحيحة، فأعادت أليس قلب أوضاع أحد المحلفين ثانية (وكان بيل السحلية مرة أخري) ليوضع في موضعه الصحيح، وعلى الرغم من أنها لم تكن متأثرة إطلاقا بإمكانات المحلفين، حتى إنها لم تكن تعتقد أن هناك أية أهمية سواء أكانت رءوسهم أو أذيالهم إلى أعلى.. وهكذا استمرت المحاكمة.

سأل الملك أليس عمّا تعرف عن الموضوع المثار.. حين قالت إنها لا تعرف أي شيء، نصح الملك المحلفين أن يأخذوا ملاحظة بهذه الجملة المهمة، فصحّح الأرنب الأبيض كلمات الملك، بأن سعادته قد عني أن يقول إنها غير مهمة.. غمغم الملك بعدّة كلمات لنفسه، كما لو كان لا يري هناك فرقا، ثم نطق بالمادة الثانية والأربعين من كتاب يمسكه بأن البشر الذي يتجاوزون الميل طولا، ينبغي عليهم مغادرة المحكمة.

رفضت أليس أن تنصرف، لأنها لم تبلغ الميل طولا، وأيضا لأنها تقول إن الملك قد وضع تلك المادة فقط كي يجعلها تنصرف.. ادَّعي الملك أن ارتفاع ميل هو حدّ الارتفاع لأقدم قاعدة قانونية في الكتاب، لكن أليس ردّت بسرعة وجسارة بأن أقدم قاعدة قانونية كان ينبغي أن يكون رقمها واحد. كان ذلك كثيرا جدا بالنسبة للملك، فطلب من المحلفين أن يعدوا حكمهم.

عاد الأرنب إلى تذكير الملك ثانية أنه مازال هناك دليل ينتظر أن يقدم، وهو رسالة محلّ اعتبار وضعت حالا أمامه.. قرر الأرنب أن الشايب كتب الرسالة إلى شخص ما، لكن ليس هناك عنوان عليها. وظهر أن الرسالة قد تحوّلت إلى قصيدة، والأغرب من كل ذلك، أن القصيدة ظهر أنها لم تكن بخطّ الشايب على الإطلاق.. استفاد الشايب من الموقف كي ينكر كتابة القصيدة، كما أظهر أنه لم يكن هناك توقيع عليها، وقرر الملك أن إنسانا غير أمين فقط هو من لا يوقع قصيدة باسمه، ولذلك فقد ثبت أن الشايب مذنب، فتدخلت أليس بأنه ليس هناك أي دليل على الإطلاق، وأنه لا أحد يعرف عمّا تدور القصيدة. وباعتبار أن الأرنب كان حكما محايدا في موقعه، لذا استدعي ليقرأ القصيدة.

لم يعرف الأرنب من أين يبدأ ، لذلك سأل الملك، الذي نصحه: "ابدأ من البداية. . واستمر حيت تصل إلى النهاية: عندئذٍ تتوقف".. وهكذا قرأ الأرنب القصيدة، التي وجد الملك فيها دليلا مؤكدا.. عند ذلك الوقت، كانت أليس قد تضخمت كثيرا، لدرجة أنها لم تعد تخاف أحدا في المحكمة، لذلك قاطعت الملك، وتحدّت المحكمة أن تشرح لها معني القصيدة.. ولم تصدّق نفسها، أنه يوجد "ذرّة من المعني فيها".

أمسك الملك بالعلاقة بين القصيدة والشايب، لأن هناك بيتًا في القصيدة حول عدم القدرة على العوم، وطالما أن الشايب كان مصنوعا من كرتون، فبطبيعة الحال لا يمكنه العوم.. استمرّ الملك في تفسيره المجرّم للقصيدة، وتساءل عن معني البيت الذي تنتاب فيه النساء نوبات، وقد أكّد أن الملكة لم تُصب أبدا بنوبات، وأخبرها أن الكلمات لا تناسبها.. كان جلالته متضايقا تماما، حين شرح للمحكمة أنه صنع تورية بارعة، وطلب مرة أخري من المحلفين إعداد الحكم.

شاركت الملكة في هذه الإجراءات القضائية، بإعلان "الحكم أولا. ثم قرار المحلفين بعد ذلك". أخبرت أليس الملكة، وهي غاضبة من كلماتها أنه محض هراء أن يصدر الحكم أولا، وحين طلبت منها أن تمسك لسانها، رفضت، وهو ما جعل الملكة تأمر بطبيعة الحال بإعدامها.. لكن أليس لم تكن خائفة على الإطلاق، فأخبرت جلالتها والمحكمة: "أنت لا شيء، سوي مجموعة من كروت اللعب!".

وهو ما جعل الكروت جميعا تطير عليها. صرخت أليس محاولة أن تدفعها بعيدا، حتى تيقنت من أنها ما تزال ترقد ورأسها في حجر أختها.. وحين استيقظت تماما، حكت لأختها كل المغامرات، التي جرت لها في الحلم، فأرسلتها أختها إلى البيت قبل أن تصبح فعلا متأخرة كثيرا، وظلت

على الضفة تفكّر في مغامرات أليس العجيبة. بدأت أخت أليس حلم يقظة حول أليس، وحول مخلوقات حلم أليس.. اعتقدت أنها تسمع الأرنب الأبيض وهو يهرول، والفأر وهو يتقافز حولها، كما ظنت أنها تسمع خشخشة الفناجين في حفل الشاي المجنون، وأحكام إعدام الملكة، وصيحات الجريفون، وما إلى ذلك. كانت أخت أليس تصدق تقريبا أنها بنفسها في أرض العجائب، ولكنها كانت تعرف أن ما تسمعه حقيقة هي أصوات أجراس الخراف وراعي الغنم، وضوضاء المزرعة. أخيرا تصورت أليس كبالغة، ما تزال تمتلك قلب طفل، تحكي لأطفالها حكايات غريبة عجيبة، مثل حلم مغامراتها تحت الأرض في أرض العجائب.



« الأمير الصغير »

حين كنت في السادسة من عمري، وقبل أن أصبح طيارا، رأيت في كتاب صورة أفعي كبيرة عاصرة تبتلع حيوانا مفترسا. وقرأت في الكتاب نفسه أن الأفعي العاصرة ينبغي أن تخلد إلى النوم لمدة ستّة أشهر بعد ابتلاع فريستها حتى تهضمها. ونتيجة لاندهاشي من هذه المعلومات، رسمت اللوحة الأولي، وفيها صورة أفعي عاصرة تهضم فيلا، بدت مثل كتلة مستطيلة مع خطين يمتدان يسارا ويمينا. لكن الكبار لم يكونوا خائفين من الصورة، لأنهم اعتقدوا أنها قبعة.

و حتى أشرح اللوحة الأولي للكبار، رسمت اللوحة الثانية، التي تظهر فيلا بداخل الأفعي، فانزعجوا منها ونصحوني أن أهتم بدلا من الرسم بالجغرافيا والحساب وقواعد اللغة، فاقتنعت أن الكبار يرغبون دائما أن تشرح لهم الأشياء، وقررت ألاّ أكون فنانا، وأن أصبح طيارا بدلا من ذلك، رغم أنني عرفت أن الجغرافيا لم تكن مفيدة للطيران.

هكذا أصبحت طيارا، لكنني كنت كلما قابلت من أعتقد بذكائهم من الكبار، أختبرهم بأن أعرض عليهم اللوحة الأولي، وكانوا يعتقدون عادة أنها صورة قبعة، وهو ما أقنعني أن الكبار لا يتغيّرون، بل يفضّلون الحديث فقط حول موضوعات عملية مملة مثل السياسة وأربطة العنق.

هكذا عشت وحيدا. لكن حدث منذ ست سنوات أن تحطمت طائرتي وسط صحراء صحاري، وكان موقفا رهيبا، لذلك صدمت حين سمعت

صوتا صغيرا غريبا يطلب مني أن أرسم له حَمَلًا، وحين استدرت رأيت الأمير الصغير، الذي كان طفلا صغيرا أشقر الشعر، راح يحملق في بعزم، دون أي خوف قد يتملك طفلا فقد في الصحراء. ونظرا إلى أنني لم أكن أعرف كيف أرسم حملا، رسمت بدلا منه تخطيطا للوحة الأولي، وسرعان ما اندهشت حين تعرّف فيها الأمير الصغير على صورة فيل بداخل حيّة عاصرة. رفض الأمير الصغير اللوحة الأولي، وأصرّ على أنه يحتاج إلى رسم حمل. وبعد أن رسمت ثلاث لوحات مختلفة لحمل رفضها الأمير جميعا، رسمت أخيرا صندوقا وقدمته للأمير على أن الحمل بداخله، فقال إنّ الصندوق يحتوي تماما على نوع الحمل الذي يريده، وهو ما جعله سعيدا. وتساءل الأمير عمّا إذا كان هناك عشب كاف للحمل، لأن المكان الذي يعيش فيه صغير تماما.

***

حاولت أن أكتشف من أين جاء الأمير الصغير الغامض، لكن الأمير الصغير كان يفضّل أن يطرح الأسئلة عن أن يجيب عنها. وقد سألني عن الطائرة، وماذا تفعل، فأجبته بأنها تسمح لي أن أطير في الهواء. وبدا أنّه قد ارتاح لأنني جئت من السماء، فسألني: من أي كوكب جئت؟ اندهشت لسؤاله، وحاولت أن أعرف الكوكب الذي جاء منه. لكن الأمير الصغير تجاهل أسئلتي، مبديا إعجابا بالحمل الذي رسمته له، فعرضت أن أرسم عمودا ورباطا للحمل، حتى لا يتوه، فضحك الأمير الصغير.

***

تأكّد لي من خلال إجابات الأمير الصغير عن أسئلتي أنه جاء من كويكب صغير الحجم. وعادة حين يكتشف علماء الفلك كواكب جديدة، فإنهم يطلقون عليها أرقاما بدلا من الأسماء. وأنا متأكد تماما من أن الأمير

يعيش على كوكب ب – 612، الذي حدد موقعه أولا عام 1909، بواسطة عالم فلك تركي. لكن حين عرض اكتشافه في ذلك العام على مؤتمر علماء الفلك العالمي، سخر الحاضرون منه لأنه كان يرتدي ملابس تركية تقليدية. لكن بعد أن أمر الدكتاتور التركي كل مواطنيه بارتداء الملابس الأوروبية، عرض عالم الفلك تقريره ثانية عام 1920، فاستقبلوه بشكل حسن.

* * *

إنني أحكي تفاصيل كويكب الأمير الصغير، حتى أرضي القرّاء الكبار، الذين يفهمون فقط الأرقام والأشكال، ولا يتساءلون أبدا حول السمات الجوهرية مثل: الجمال والحب، فالكبار يقررون مدي جمال منزل بمعرفة عمره وكم تكلف، وكي يؤمنوا بوجود الأمير الصغير، فإنهم يطلبون برهانا أكبر من مجرد إخبارهم أن الأمير الصغير طلب منه أن يرسم له حملا، فهم يطلبون برهانا لوجود الأمير الصغير، قابلا للقياس.

إنني أريد أن يُقْرأ هذا الكتاب بعناية، لأنه من المؤلم أن أعيد تجميع هذه الذكريات حول صديقي الصغير الراحل. يقلقني أنني أزداد كبرا، وأنا أكتب وأصوّر هذه القصة، حتى لا أنسي الأمير الصغير. ويذكرني رسم اللوحات بشكل خاص بمعني أن تكون طفلا، وأنا أعرف، مع ذلك، بأنني لا أستطيع أن أري حملا عبر حوائط الصندوق، لأنني مثل كل البشر ازداد كبرا.

* * *

كنت أعرف كلّ يوم، شيئا جديدا عن موطن الأمير الصغير. وفي اليوم الثالث من زيارة الأمير الصغير، اكتشف الأمير أنه يريد من الحمل أن يأكل أوراق نبات "البوأوباب"، الضارة التي تنمو على كويكبه. تعتبر

"البوأوباب" أشجارا هائلة، لأن جذورها يمكنها أن تمزق كويكبه الصغير إلى قطع متناثرة.

لاحظ الأمير الصغير أن على الفرد أن يكون حذرا تماما في رعاية كويكبه. وطالما أن كل الكويكبات لديها نباتـات جيـدة وأخـري سـيئة، فينبغي على الفرد أن يظلّ يقظا ومنظما، ويقوم بانتزاع النباتات السيئة سريعا عندما تبدأ في النمو. يتذكر الأمير ذلك الكسول، الذي أجّل الاهتمام بثلاث نبتات صغيرة من "البوأوباب"، وتجاهلها، حتى نمت أخيرا وراحت تمزّق كويكب الرجل. وقد رسمت الكويكب الذي اخترقه "البوأوباب"، كتحذير للأطفال. إن "البوأوباب" يشكل تهديدا كل يوم، والذي يتعامل معه غالبية البشر دون أن يولوه الاهتمام اللازم. إنّ الدرس الذي يجب تعلمه من قصة "البوأوباب" شديد الأهمية، لدرجة أنني رسمته باهتمام بالغ عن أي رسم آخر قمت به.

في يومي الرابع مع الأمير الصغير، أصبحت متشوقًا لأن أعرف مدي صغر كويكبه في الحقيقة. اندهش الأمير الصغير من أنه يتحتم عليه، حتى يري الغروب أثناء وجوده على الأرض ، أن ينتظر حتى تغرب الشمس، بينما على كويكبه، يمكن للفرد أن يري نهاية النهار في أي وقت يرغبه بمجرد أن يتحرك ببساطة عدّة خطوات. وهو يتذكر أنه رأي أربعة وأربعين غروبا، يمكنها أن تثير بهجة الفرد حين يكون حزينا. لكنه لم يخبرني عما إذا كان حزينا أم لا حين رأي أربعة وأربعين غروبا.

* * *

في يومه الخامس في الصحراء، تساءل الأمير الصغير عمّا إذا كان حمله الجديد سيأكل الشجيرات والأزهار. كنت في تلك اللحظة معنيا بإصلاح طائرتي، فأجبت بأن الحمل سيأكل أي شيء أمامه. عندئذٍ تساءل الأمير

الصغير عن فائدة أشواك الزهرة إذا لم تكن لحمايتها؟ كنت مكتئبا بسبب محرك الطائرة، وقلقا من نقص الطعام والماء، فتعللت بأنني شديد الانشغال بمواضيع خطيرة، حتى لا أجيب عن أسئلته، فاتهمني الأمير الصغير وهو غاضب بأنني أعمل مثل الكبار بدلا من رؤية ما هو مهم فعلا.

جادلني الأمير في أنه إذا كانت توجد هناك زهرة فريدة على كويكبه، فليس هناك أهمّ من التساؤل عمّا إذا كان الحمل سيأكلها.. ثم انفجر في البكاء، وفجأة تيقنت أن سعادة صديق هي أخطر موضوع على الإطلاق، فربّت على ذراعي الأمير حتى أطمئنه، مع افتراض أن زهرته ستكون على ما يرام، فاقترح أن أرسم كمامة للحمل.

حكي لي الأمير عن زهرته، فقد لاحظ ذات يوم أن نباتا غامضا جديدا يبزغ على كويكبه، فراقبه بحذر أولا خشية أن يكون نوعا جديدا من "البوأوباب". وسرعان ما بزغت زهرة، مخلوق جميل لكنها مختالة بنفسها، تطلب باستمرار أن يعتني الأمير الصغير بها. أحبّ الأمير الصغير الزهرة بشدّة، وكان سعيدا بأن يستجيب لطلباتها.. رواها، وغطاها بناقوس زجاجي ليلا، ووضع حاجزا لحمايتها من الريح. وذات يوم ضبط الزهرة، وهي على وشك أن تصنع كذبة صغيرة، حين قالت الزهرة: "من أين تعتقد أنني جئت؟". كانت قد بزغت من بذرة على كويكب الأمير، الذي فهم أنها لم "تجئ" من أي مكان.. جعلت كذبة الزهرة الأمير يشكّ في إخلاص حبّها، وأصبح غير سعيد لدرجة أنه قرر أن يغادر الكويكب. قال الأمير إنه لم يكن ليغادر الكويكب لو نظر إلى أفعال الزهرة بدلا من كلماتها.. لقد تأكد فعلا أن الزهرة تحبّه، ولكنه كان صغيرا جدا، وغير محنك، ليعرف كيف يحبّها.

* * *

في يوم رحيل الأمير الصغير من كويكبه، قام بتنظيف كل البراكين الثلاثة، حتى الخامد منها، واقتلع براعم "البو أوباب" التي وجدها، وروى الزهرة للمرة الأخيرة. وكان على وشك أن يبكي، حين حاول أن يضع الناقوس الزجاجي فوق رأس الزهرة. ثم ودع الزهرة، التي رفضت أن تجيب في البداية، لكنها سرعان ما اعتذرت، مؤكدة له أنها تحبّه، وأنها لم تعد تحتاج إلى وضع الناقوس عليها، وطمأنته بأن الأمر سيكون على ما يرام دون عناية منه، متعجلة أن يرحل ، وهي تستدير بعيدا ، حتى لا يراها تبكي.

***

في بداية رحلته، وجد الأمير الصغير نفسه قريبا من كويكبات 325، 326، 327 ،328، 329،و330، فقرر أن يزور كلًّا منها على التوالي.. على الكويكب الأول وجد ملكا يجلس على عرش، مرتديا عباءة من الفرو. كم أسعد الملك أن يجد موضوعا للحديث، فبدأ يأمر الأمير الصغير. ادعي الملك أنه يتولي حكم كل كويكبات الكون، ولكنه دائما يفصّل أوامره كي تناسب الشخص الذي يأمره. للمثال، حين تثاءب الأمير الصغير، فسرعان ما أمره الملك أن يتثاءب. حين طلب الأمير أن يأمر الملك بحلول الغروب، أجاب الملك بأن الشمس ستطيعه، لكن ذلك يتطلب الانتظار حتى الساعة السابعة وأربعين دقيقة، وهو الوقت الذي تحدد بعد استشارة التقويم.

يصرّ الملك على أن تطاع أوامره، ولكنه رجل طيب، لذلك يجعلها دائما معقولة. يؤكد الملك ذلك، لأنه حكيم جدا لدرجة أن يكون له حق أن يأمر. حين قرر الأمير أن يغادر الكويكب، حاول الملك متعجلا أن يحثه على البقاء، فقام بتعيينه وزيرا للعدل، ولكن الأمير وجد مطلبه سخيفا، طالما أنه ليس هناك على الكويكب سواه ليحاكمه، فأخبره الملك أن هناك على



الكويكب فأرا عجوزا، يمكن للأمير أن يحكم عليه بالإعدام، فأخبره الأمير الصغير أنه ليس لديه اهتمام بالحكم على أي شخص بالموت. وبينما كان الأمير ينصرف، عيّنه الملك سفيرا، فعقّب الأمير بأن الكبار أناس شديدو الغرابة.

***

زار الأمير الكويكب الثاني، فوجد هناك رجلا مزهوّا بنفسه، طلب من الأمير أن يصفق بيديه. وحين فعل الأمير ذلك ، رفع الرجل قبعته بتواضع وانحني تقديرا.. استمتع الأمير بتلك اللفتة في البداية، ولكنه سرعان ما أتعبته رتابتها، فسأل الرجل المزهو عما إذا كان قد أثار إعجاب الأمير الصغير فعلا؟ لكن الأمير لم يفهم معني كلمة "إعجاب"، فشرح له أنه يريد من الأمير أن يقول إنه الرجل الأكثر ذكاء، والأكثر وسامة، والأكثر ثراء على الكويكب، فأوضح له الأمير أن ذلك يعتبر مجرد عبث، طالما أن المزهو هو ساكن الكويكب الوحيد. قال الأمير، وهو يهزّ كتفيه: "إنني أعجب بك"، لكنه تساءل: ماذا يعني إعجابه أي شيء للرجل؟ وانصرف الأمير معقبًا ثانية أن الكبار شديدو الغرابة.

***

زار الأمير الكويكب الثالث، حيث قابل رجلا سكّيرا، وحين سأله الأمير: لماذا يسكر؟ ادعي السكير أنه يسكر كي ينسي.. تساءل الأمير، شاعرا بالشفقة عليه، عمّا يريد أن ينساه؟ أجاب السكير أنه يريد أن ينسي خجله من الشرب.. وسرعان ما سقط في صمت عنيد.

أكمل الأمير رحلته مشوّشا ، ملاحظا أن الكبار شديدو الغرابة! زار الكويكب الرابع ، الذي احتله رجل أعمـال شديد الانهمـاك في حساباته

الرقمية، لدرجة أنّه تعرّف بصعوبة على الأمير الصغير، الذي كرر سؤاله حول عمّا يفعل. لكن رجل الأعمال لم يجب عليه، وإن احتج بأنه شخص جاد، ليس لديه وقت لأسئلة الأمير الصغير.. وعندما استفزّه إلحاح الأمير الصغير، بيّن له أخيرا أنه "يحصي تلك الأشياء الذهبية الصغيرة، التي تصنع أحلام يقظة الكسالى"، وهي التي يعرفها الأمير الصغير عادة على أنها نجوم.

فكر الأمير الصغير في منطقية رجل الأعمال مثل عبثية السكّير، ولكنه تقبّل فكرة أن يمتلك رجل الأعمال النجوم، لأنه كان أول شخص يدّعي ملكيتها. سأل الأمير الصغر رجل الأعمال عمّا يفعل بالنجوم، فأجابه الرجل بأنه يسجّل عددها ويضعها في بنك. جادله الأمير الصغير بأن ذلك لا يستحق أن يسمي أعمالا خطيرة، لأنّه يمتلك زهرة وثلاثة براكين، يعرفها ويعتني بها، ولذلك تعتبر ملكيته مفيدة، بينما ملكية رجل الأعمال ليست كذلك.. لم يعقّب رجل الأعمال على هذه الملاحظة، فتحرّك الأمير الصغير، ملاحظا أن الكبار "غير طبيعيين" حقا.

* * *

كان الكويكب الخامس، الذي زاره الأمير، صغيرا كلية، يكفي فقط لمصباح شارع ولمشعل ذلك المصباح. اعتبر الأمير إشعال المصباح عملا عبثيا، مثل تلك الأعمال الأخري، التي زار كويكباتها، حتى رأي أن مشعل المصباح يؤدي عمله بشكل جميل، وأنه عمل مفيد. كان مشعل المصباح ينفذ أوامر إطفاء مصباحه خلال النهار ويشعله ليلا، يطفؤه باهتياج شديد ثم يعيد إشعاله ثانية. شرح أن أوامره اعتادت أن تكون لها معني، ولكن المشكلة أن الكويكب أصبح يدور الآن بسرعة شديدة، لدرجة أن نهارا جديدا يبزغ كل دقيقة.

أعجب الأمير بحسّ مشعل المصباح بأداء الواجب، ولاحظ أنه بين كل من قابلهم، فإن مشعل المصباح هو الوحيد، الذي يمكن أن يصادقه حقا. نصحه أن يتمشي عند الغروب كي يتفادي الإطفاء، وأن يشعل الضوء باستمرار، فقال مشعل المصباح: إن ما يريده حقا هو أن ينام، ولكن لسوء الحظ، كان الكويكب صغيرا جدا لشخصين، فانصرف الأمير حزينا تاركا مشعل المصباح، وكويكبه، الذي يحدث فيه 1440 غروبا كل أربع وعشرين ساعة.

* * *

على الكويكب السادس الذي زاره الأمير الصغير، قابل رجلا يكتب كتبا.. قال الرجل إنه جغرافي وعالم يعرف مواقع كل البحار، والجبال، والمدن، والصحاري. حين سأل الأمير الصغير الجغرافي عن كويكبه، أجابه بأنه لا يعرف شيئا عن كويكبه نفسه، لأن عمله ليس اكتشاف ذلك، فهو يجمع معلومات من مكتشف ثم يتفحص شخصيته ، فإذا كانت جيّدة، فإنه يبدأ بتفحص مكتشفاته.

استفسر الجغرافي عن كويكب الأمير الصغير، فأخبره عن براكينه الثلاثة وزهرته، فقال الجغرافي إنه لا يسجل زهورا، لأنها "سريعة الزوال"، وهو ما يعني بأنها "مهددة باختفاء وشيك"، فصدم الأمير بأن زهرته معرّضة لمثل هذا الخطر، وبدأ يأسف على أنه تركها، وسأل الأمير عن المكان الذي يتوجّب عليه أن يزوره فيما بعد، فأخبره الجغرافي عن الأرض، التي تتمتع بسمعة طيبة. وانصرف الأمير إلى الأرض، وهو يفكر في زهرته.

* * *

قلت للأمير الصغير: إنني لم أتخيل أبدا كوكب الأرض بمثل هذه الضخامة، حيث يعيش عليه ما يقرب من بليونين من البشر، يتضمنون

مئات الملوك، وآلاف الجغرافيين، ومئات الآلاف من رجال الأعمال، وملايين من السكاري والرجال المزهوين، وقبل اكتشاف الكهرباء، كان هناك 462511 من مشعلي المصابيح، الذين كانوا يقدّمون يوميا نوعا من رقصة عالمية، دون وعي موائمين حركاتهم، بينما تندفع الشمس بخفّة عبر الكوكب الدائر. وفقط هم مشعلو المصابيح عند القطبين الشمإلى والجنوبي، لم يكونوا جزءا من تلك الرقصة ، طالما أنه كان عليهم أن يعملوا مرتين في السنة فقط.

***

لكنني أعترف فعلا أن وصف الأرض يعطي صورة قاتمة، لأن الإنسانية تشغل فعلا نسبة مئوية صغيرة جدا من فضاء الأرض، وليس لها تلك الأهمية، التي يعتقدها معظم الناس.

حين وصل الأمير إلى الأرض كان مندهشا، لأنه لم ير أحدا، ثم قابل ثعبانا أخبره أنه في الصحراء الإفريقية، التي لا يوجد فيها بشر، وقد لا حظ الأمير الصغير أنه لابد أن تكون هناك وحدة في الصحراء، فأجاب الثعبان أن الوحدة يمكن أن توجد بين البشر أيضا. ثم لمّح إلى أنّ لدغته سامة، عارضا أنه يمكن أن يعيده ثانية إلى السماء "بلمسة" واحدة، ثم قرر أن الأمير "بريء" تماما حتى يفعل معه ذلك. سأل الأمير الصغير الثعبان عن السبب في أنه يتحدث دائما بالألغاز، فأخبره أنه يحلّها جميعا، وسرعان ما سقط كلاهما في الصمت.

***

بحث الأمير الصغير عن البشر في الصحراء، فلم يجد سوي زهرة ذات ثلاث بتلات.. أخبرته أنّ قافلة قد مرّت إلى جوارها، وقالت للأمير

الصغير: إن هناك فقط حفنة من البشر على سطح الأرض، وإنه ليست لهم جذور، وهو ما يجعل الريح تطيّرهم وتصعّب الحياة عليهم.

* * *

صعد الأمير الصغير إلى أعلى جبل رآه على الإطلاق، آملا أن يري من فوق قمته كل الكوكب وأن يجد البشر، لكنه رأي فقط مشهدا صخريا معزولا. وحين صاح الأمير أجابه فقط صدي صوته، وظنّه خطأ أصوات البشر.. كان يعتقد أن الأرض شيء غير ضروري.. حاد وصعب، فوجد أنّ بشر الأرض يرددون فقط ما يقال لهم.

* * *

وجد الأمير أخيرا طريقا قاده إلى حديقة زهور ضخمة.. كان مذهولا حين وجد هناك كثيرا من الزهور، التي بدت تماما كزهرته، التي أخبرته أنها فريدة. بدأ يشعر أنه ليس أميرا عظيما على الإطلاق، طالما أن كويكبه يحتوي فقط على ثلاثة براكين وزهرة، وهو ما يفكر فيه الآن كشيء عادي، فاستلقي على النجيل وبكي.

...وبينما هو كذلك ، ظهر ثعلب.. طلب الأمير من الثعلب.. أن يلعب معه، لأنه غير سعيد. أجاب الثعلب بأن الأمير يحتاج أولا إلى أن "يتآلف" معه.. لم يفهم الأمير معني كلمة يتآلف، ففسّر له الثعلب معناها ، "أي أن تخلق روابط".. وأنه في هـــذه اللحظة ، فإنه والأمير لا يعني أي منهما شيئا للآخر، ومع ذلك، فإذا تآلف الأمير الصغير مع الثعلب، فسرعان ما سيحتاج كل منهما إلى الآخر، ويصبح كل منهما فريدا وخاصا بالنسبة للآخر. قال الأمير الصغير إنه تآلف مع زهرة، وإنه غاب، لأنه من كويكب

آخر. أثارت هذه الحقيقة اهتمام الثعلب في البداية، ولكن سرعان ما فقد اهتمامه حين اكتشف أن كويكب الأمير ليس عليه دواجن.

شرح الثعلب للأمير أن حياته لا تتغير أبدا، فهو يطارد الدجاج والناس تطارده. وقال إنه إذا ما تآلف مع الأمير، فإنه سيتخذ خطوات للسعي وراءه بدلا من الابتعاد عنه، وإذا شعر الأمير أن الثعلب الأشقر يذكره بمنظر حقول القمح الحيّة، فإن القمح الذهبي سيذكره بصديقه.

في البداية كان الأمير قلقا، وقال إنه ليس لديه وقت ليبحث عن أصدقاء.. قال الثعلب: إن الأمير إذا أراد صديقا، فإن عليه أن يتآلف مع الثعلب، فسأله الأمير: كيف يفعل ذلك، فأخبره بشكل جذاب أن ذلك يتم من خلال شعائر، وشرح له أن الطقوس والشعائر مهمة، لأنها تسمح بأن تتحقق لحظات معينة تبرزه من بين كل الآخرين.

وهكذا، تآلف الأمير مع الثعلب، لكن حين جاء وقت رحيل الأمير قال الثعلب إنه سيبكي، فقال الأمير: إن تلك كانت غلطة الثعلب لأنه أراد أن يتآلف مع الأمير ليصبحا صديقين، فقال الثعلب إنه يعرف، ولكن ذلك كان يستحق، لأنه الآن يستطيع أن يمتدح حقول القمح. طلب الثعلب من الأمير أن يزور حديقة الزهور مرّة أخري، حيث يعرف لماذا كانت زهرته فريدة.. كما أخبره الثعلب أنه سيكشف له عن سرّ، حين يعود الأمير ليودعه.

تأكّد الأمير الصغير، وهو في الحديقة، أنه على الرغم من أن زهرته ليست فريدة الطابع بين الزهور.. فإنها فريدة بالنسبة له؛ لأنه يعني بأمرها ويحبّها، وأخبر الزهور أن زهرته مثل الثعلب، فقد تآلف معها واهتم

بأمرها، وأنها تعتبر الآن في نظره زهرة فريدة. ثم عاد الأمير ثانية ليودّع الثعلب، فأفشي له الثعلب سره: وهو أن القلب يري فقط ما لا تراه العيون بوضوح؛ لأن العيون تفقد ما هو مهم.. كما نبهه إلى أن الوقت الذي قضاه الأمير مع زهرته جعله يتآلف معها، فأصبحت زهرته شديدة الأهمية. وهكذا يصبح الفرد مسئولا للأبد عمّا تآلف معه.

* * *

أكمل الأمير الصغير رحلته، وقابل محوّل قطارات سكك حديدية، وبينما كان القطار يزأر، شرح المحوّل أن القطارات تنقل الناس من مكان إلى آخر، فسأل الأمير: هل السبب في حركة الناس أنهم ليسوا سعداء؟ فأجاب محوّل القطارات: إن الناس أينما كانوا ليسوا دائما سعداء، فتساءل الأمير عمّا إذا كان الناس يسعون وراء شيء، فأجابه المحوّل بأن الناس لا يسعون وراء أي شيء على الإطلاق، وأضاف أن الأطفال فقط هم من يضغطون وجوههم على نوافذ القطارات، وهم يراقبون المشهد، وهو يندفع أمامهم. علق الأمير أن "الأطفال هم فقط من يعرفون ما يبحثون عنه"، وأضاف قائلا: إن الأطفال قد يجعلون عروسة من خرق بالية شيئا شديد الأهمية، لدرجة أنه حين تؤخذ منهم يبكون.. قال المحول: إنّ الأطفال هم السعداء وحدهم.

* * *

ثم قابل الأمير كاتب مبيعات، كان يبيع فواتير مبتكرة كي يتغلب الناس على العطش.. شرح التاجر أن أخذ الفواتير يعني أن الشخص لن يشرب أبدًا أي شيء، وهو ما سيوفر ثلاث وخمسين دقيقة يوميا، فأجاب

الأمير بأنه إذا كان لديه ثلاث وخمسون دقيقة إضافية لأمضاها، وهو يمشي ببطء شديد باتجاه نافورة باردة.

***

بمضي الوقت، أنهي الأمير الصغير قصّة رحلاته، وكنت قد جنحت بالطائرة في الصحراء لمدة ثمانية أيام، وكاد الماء ينفد مني. كنت قلقا جدا من أن أموت من العطش، دون أن أسمع مزيدًا عن الأمير والثعلب.. أجاب الأمير بأنه مازال من الجيّد أن يكون لك صديق، حتى لو كان الفرد على وشك الموت عطشا.. وعرض أن نبحث عن بئر، وعلى الرغم من عبثية هذه المحاولة، فقد وافقت.

وبينما كنا نمشي، تحدثت عن الجمال، فقال الأمير: إن الصحراء جميلة، لأنها تخفي في مكان ما بئرا. عندئذٍ تذكرت منزل طفولتي، الذي كانت تدور حوله شائعات أن به كنز مدفون، وهو ما جعلني أستنتج أن منبع الجمال هو دائما شيء سري وخفي.. كان الأمير سعيدا، لأنني وافقت على دروس الثعلب، وسرعان ما راح في النوم.. حملته بين يدي، منتعشا بجمال الأمير النائم الهش، الذي أحبّ وردته بتلك الدرجة.. وعند الفجر وجدنا البئر، التي كنا نبحث عنها.

***

نزحنا الماء من البئر، الذي يشبه بئرا قرويا، ولا يشبه أي شيء قد يتوقع وجوده في الصحراء. وأثناء الشرب، وجدت الماء حلوا، وهو ما أنعش القلب مثل احتفال طيّب، والذي تم ظهوره بالطريقة نفسها التي تظهر بها هدية عيد الميلاد، وما يحيط بها من احتفالات.. كنّا متفقين على أن البشر

على الأرض يفتقدون رؤية مثل هذه الأشياء، التي ينظرون إليها. يرعي الناس على الأرض خمس آلاف زهرة، بينما يكمن ما يريدونه حقيقة في زهرة واحدة، أو في قطرة ماء. لكن، كما لاحظ الأمير الصغير، أن الناس ينظرون بعيونهم بدلا من النظر بقلوبهم.

ذكرني الأمير الصغير بوعدي برسم كمامة للحمل .. أخرجت رسوماتي ، فضحك الأمير الصغير بشكل طبيعي على بدائيتها ، ولكنه قال : إنّ الأطفال سيفهمونها . وبينما كنت أعطيه رسم الكمامة ، تيقنت أن للأمير خططًا سرية وتخمينات ، ترجع إلى حقيقة أن اليوم التالي يشير إلى ذكري مرور سنة على وصول الأمير إلى الأرض. رفض الأمير الاعتراف بذلك، ولكنني تأكدت من صحة تخميناتي.. وفجأة شعرت بحزن، فقد تذكرت درس الثعلب ، وأن تلك دموع ألم المخاطرة من كونه أصبح متآلفا معه .

* * *

عدت في اليوم التالي من إصلاح طائرتي كي أرى الأمير الصغير جالسا على حائط مهجور إلى جانب البئر.. كان يناقش خطط ذلك المساء مع شخص لا يرى، وقد ذكر موضوع السمّ.. سأل الأمير رفيقه، غير المرئي، أن ينصرف حتى يستطيع أن يبتعد عن الحائط، وحين نظرت إلى أسفل شاهدت ثعبانا.. الثعبان نفسه ، الذي حيّا الأمير عند وصوله إلى الأرض لأول مرة.. سحبت بندقيتي، ولكن الثعبان هرب، وكان كل اهتمامي منصبا على الأمير، الذي كان شاحبا ومرعوبا.. هنأني الأمير على إصلاح الطائرة، وحين سألته كيف عرف ذلك.. قال الأمير بأنه سيقوم برحلة ليست أطول كثيرا لكنها أصعب.

قال الأمير إنه سيكون أكثر خوفا تلك الليلة، وحاول أن يواسيني بالإشارة إلى النجوم، قائلا بأنها ستكون لها معني خاص وفريد لي، لأنني أعرف شخصا يعيش بينها.. ثم أصبح الأمير جادًّا مرة أخري، وسألني أن أصحبه تلك الليلة.. بدت تلك التلميحات كما لو أنه سيموت.. كما أنه لم يثق في لدغة واحدة من الثعبان، بل كان يخشي أن يلدغني أيضا.

تسلل الأمير الصغير في تلك الليلة وحده مبتعدا، وحين تنبهت رفض أن ينصاع لي، وأكد لي أن الأمور ستكون على ما يرام، لأن جسده الميّت سيكون فقط مجرد صَدَفة خالية شديدة الثقل عليه؛ ليأخذها معه إلى السماء. لم أقتنع بكلماته، وأخيرا انفجرت دموعي. ازداد خوفي، فشرح لي أن زهرته تحتاج إليه، ثم سقط في الصمت.. لدغ الثعبان الأمير في كاحله، فسقط برقة دون أن يحدث أي صوت.

***

انقضت ست سنوات، على نهاية صديقي.. كنت أعرف أن الأمير سيعود إلى كويكبه، لأنني في الصباح التإلى بعد أن لدغه الثعبان ، لم أجد جسد الأمير.

كان أصدقائي سعداء بعودتي ثانية، وحين أنظر إلى النجوم، أسمع أصوت أجراس دقيقة كثيرة. ومع ذلك، كنت قلقا، من أنني نسيت أن أرسم حزاما لكمامة الحمل، وهو ما يعني أنه قد يأكل الزهرة. لكنني أؤكد لنفسي أحيانا أن الأمير لن يدع مثل هذا الشيء يحدث، وعندئذٍ أفكر في أن الصدفة قد تحدث، وتتحول أصوات الأجراس إلى أصوات دموع.. إنني أعترف أن عواطفي مشوشة، كما هي بالتأكيد لكل من أحبّ الأمير

الصغير.. إنه الأمر نفسه حين أنظر إلى السماء، يثور السؤال حول إذا ما كان الحمل قد أكل الزهرة أم لا، وهو ما يغيّر أسلوب نظري إلى كل شيء. وألاحظ، وهو بالأحرى شيء أكثر سخافة، أن الكبار لن يفهموا هذا الأمر.. إنني أتذكر مشهد النهاية الأكثر حزنا والأكثر حبًّا في العالم.. ينبغي أن نفتح عيوننا على المشهد، إذا ما ذهبنا ذات مرة إلى الصحاري، وأن نتريث تحت النجوم لوهلة، إذا كنّا نراها.. راجيًا أن تقلصوا حزني بكلمة فورية، إذا حدث وقابل أحدكم الأمير الصغير.

* * *

فرانز كافكا

"التحوّل"

استيقظ "جريجور سامسا" ذات صباح، بعد أحلام مثيرة للقلق، فاكتشف أنه تحوّل في فراشه إلى حشرة عملاقة.. حين تفحّص حالته الجديدة، وجد أن له سيقانا كثيرة رفيعة، وظهرا صلبا، وبطنا ذات فصوص، وهو ما جعله يتعجّب للحظة ممّا حدث له. وسرعان ما لفت انتباهه ملاحظة أن حجرته قد ضاق حجمها، وأنّ هناك على الحائط صورة امرأة في إطار مستخرَجة من مجلة.. كان النوم مازال مسيطرا عليه، وحين أراد أن ينام ثانية، وجد أنه لا يستطيع أن ينقلب إلى الجانب الوحيد، الذي يرتاح إلى النوم فيه.

عندئذٍ، بدأ "جريجور" يفكر في عمله كبائع متجوّل رحّال.. كان يكره السفر، وما يثيره من قلق، وحقيقة أن أيّا من معارف المرء لم تكن تخرج أبدا عن هذا المجال. وحين شعر برغبة في حكّ بطنه، حاول أن يحكها، لكنه لم يرتح لذلك الإحساس الذي شعر به. وعاوده التفكير في عمله، وكيف أنه يكره الاستيقاظ مبكرا.. كان صاحب العمل طاغية رهيبًا، وكم كان يرغب لو ترك العمل منذ وقت طويل، لو لم يكن عليه أن يساند أبويه، بِدَيْنٍ ضَخْمٍ استدانه من صاحب العمل.

حين حاول أن ينهض، ليلحق بقطار الخامسة صباحا، رأي أن الساعة هي السادسة والنصف، فتيقن أنه لم يصحو على رنين المنبه.. ربّما يكون قد تأخّر بالتأكيد عن العمل، وهو ما قد يسبب أزمة، ففكر أن يدعي المرض، لكن ذلك قد يبدو مثيرا للشك، طالما أنه لم يمرض أبدا طوال خمس سنوات

قضاها بالعمل هناك. على أية حال، فقد شعر "جريجور" بتحسّن، وإن كان مازال نعسان قليلا، ولم يجد مبررا لعدم الذهاب إلى العمل. وفي تلك اللحظة، بدأت أمّه تنادي عليه، وحين كان يردّ عليها شعر بصوته متغيّرا. ونتيجة لتأكد الأب والأخت من أنه مازال في البيت، راحا يناديان عليه من وراء باب غرفته المغلق، فأخبرهما بأنه سينهض، وهو يحاول أن يتحكم في التغيّر الذي انتاب صوته، الذي كان يعتقد أنه كان مؤشرا لإصابته بنوبة برد. وبينما كانت أخته تحاول أن تدخل إلى حجرته، كان سعيدا من عادة إغلاق الباب بالمفتاح.

وحين لم يستطع "جريجور" أن يتحكم في حركة سيقانه الكثيرة، حاول بدلا من ذلك أن يحرّك جزءه السفلي إلى خارج الفراش، لكن كان من الصعوبة بمكان أن يحرك هذا الجزء من جسمه، لأن ذلك كان يسبب له ألما فظيعا. حاول عندئذٍ أن يحرّك الجزء العلوي من جسمه، الذي بدا أنه قد يكون أيسر، لكنه سرعان ما تأكد له أن سيسقط من الفراش، وهو ما قد يتسبب في إصابة رأسه بأذى. كانت الساعة السابعة تماما، فحاول أن يستلقي، ويهدأ، متوسمًا أن ذلك قد يحلّ هذا الموقف العصيب.

حاول بعد ذلك أن يزحزح نفسه من الفراش، آملا أن يهبط على ظهره الصلب. عندئذٍ فكر في أن مدّ يد المساعدة وتعاون فردين قويين يجعل هذا الأمر ميسورا أكثر، لكن كم بدت له فكرة أن يستغيث طلبا للمساعدة كي ينهض من فراشه، أمرا سخيفا. وفي تلك اللحظة رنّ جرس الباب، وعندما فتحوا، عرف من صوت الوافد وهو يدخل إلى الشقة، أنه رئيس الكتبة في عمله. وقد ثار غضب جريجور فعلا من حقيقة أن مجرد تأخّره قليلا، دفع رئيس الكتبة إلى المجيء ليثير بلبلة أمام الأسرة بأكملها، وفي غضب أرجح نفسه إلى خارج الفراش، وحطّ على الأرض.

طلب والد "جريجور" منه أن يفتح الباب، بينما كانت الأم توضّح لرئيس الكتبة أنه لابد أن يكون مريضا، لأنه لم يتأخر أبدا منذ أن بدأ عمله، ولم يتخلف عنه أبدا. رفض "جريجور" آخر طلب لفتح الباب، وبـدأت أخته تنتحب في الغرفة المجاورة. لم يفهم "جريجور" السبب في بكـاء أختـه، طالما أنه ليس هناك خطر من فقدان وظيفته، وأن كل ما يطلبه هو أن يتركوه وحيدا. وفجأة تعكر مزاج رئيس الكتبة، وأخبر "جريجور" أن تصرفه قد صدمه، فقد كان هناك بعض الشكّ من أن تغيّب "جريجور" عن العمل، كان بسبب أنهم قد عهدوا إليه مؤخرا ببعض المدفوعات النقدية. وأصبح الكاتب الآن غير متأكد من أن ذلك هو السبب الحقيقي لتصرّف "جريجور". كما أخبره أيضا أن موقفه يمثل عدم امتنان للشركة، وأن موقفه فيها قد أصبح في خطر، لأن عمله في الفترة الأخيرة، كان غير مرض.

تركت كلمات رئيس الكتبة أثرا بغيضا في نفس جريجور، الذي بدأ يدافع عن نفسه، فبدأ بإخبار رئيس الكتبة بأنه يعاني ببساطة من توعّك بسيط. وأنه سرعان ما سيكون في العمل، وأن عمله لم يكن في الحقيقة بهذه الدرجة من السوء مؤخرا. لم يفهم أي فرد من الخارج كلمة ممّا قاله بسبب التغيّر في صوته، ونتيجة لأن أمه قد تيقنت من مرضه، أرسلت أخته جريتا لاستدعاء طبيب، كما أرسلت "آنا" الخادمة لاستدعاء الحداد، وهو ما أسعد "جريجور" أخيرا، حين تأكد من أنه لم يكن على خطأ في تفكيره، وأن الآخرين يرغبون في مساعدته. وعلى الرغم من أنه قد وضع أمله في الطبيب والحداد، إلاّ أنه اجتهد حتى وصل إلى الباب، ثم أدار المفتاح بفمه.

تراجع رئيس الكتبة، حين انفتح الباب ورآه أمامه، وسقطت أمّه مغشيا عليها، بينما أحكم أبوه إغلاق قبضتيه بإحكام، وبدأ يبكي. رجي

"جريجور" رئيس الكتبة أن يضع في حسبانه بالنسبة إلى عمله ما يجري من أحداث، وأن يساعده.. كان يقول إن عليه أن يساعد أسرته، وإنه يسرّه أن يعود ثانية إلى العمل، على الرغم من المصاعب الحالية. أمّا بالنسبة للزملاء في العمل فغالبا لم يحبوه، لأنه كان كثير السفر، وهو ما يعتقد الآخرون أنه عمل سهل، لكنه يقرّ أمام رئيس الكتبة أن الأمر ليس كذلك، وأن المسافر غالبا ما يجد أن الآخرين يثيرون الأقاويل حوله، ويشكون منه أثناء غيابه، دون أي أساس. كما رجا رئيس الكتبة ألاّ ينصرف قبل أن يوافقه الرأي.

استمر رئيس الكتبة في التراجع بعيدا، بينما كان "جريجور" يتحدث. وحين تيقن "جريجور" أن رئيس الكتبة سينصرف في مثل هذه الحالة، وهو ما سيترتب عليه خطر جسيم.. حاول أن يوقف الكاتب، وحط أخيرا على قدميه، لكنه لم يلاحظ أن أمه قد نهضت، وأنها تراجعت أمام المائدة في خوف، فانسكب إناء القهوة. فرفع "جريجور" فكيه لا إراديا، مما أخافها، فحاولت أن تهرب. هيّأ هذا الاضطراب الفرصة أمام رئيس الكتبة للهرب إلى أسفل السلالم. تناول والد جريجور عصاه ولوّح بها، بينما كان يهسهس ويخبط بقدميه كي يدفع "جريجور" ثانية إلى غرفته. حاول "جريجور" أن يتراجع، لكنه لم يستطع، وأخيرا حاول أن يستدير ببطء، وحين لم يستطع أن يعبر الباب بشكل متوازن وانحشر به، دفعه الأب من الخلف، وصفق الباب وراءه.

***

استيقظ "جريجور" عند الشفق، واثقا أنه سمع ضجة دخول شخص إلى حجرته ثم مغادرته لها.. أيقن أن جسده قد خدش بشكل سيئ أثناء دفعه بعنف عبر الباب مبكرا في ذلك اليوم. فجأة شمّ رائحة طعام تركته أخته له قرب الباب، فتحرك باتجاهه، ليكتشف أنه يحتوي على خبز

طاف في اللبن، وهو ما كان طعامه المفضّل. ومع ذلك فسرعان ما اكتشف أنه يجد اللبن كريها، ولا يستطيع أن يشربه.

لاحظ "جريجور" أن أباه لم يكن يقرأ الجريدة بصوت عال كما اعتاد أن يفعل، وأن هناك صمتا تاما في الشقة. ثم سمع صوت باب حجرته يفتح ثم يغلق بسرعة، فقرر أن يحاول أن يتتبع أي شخص يدخل في المرة التالية، لكن الباب ظلّ مغلقا. ولم يدخل أحد. ونظرا لإحساسه بعدم الراحة وهو في منتصف الغرفة، زحف إلى ما تحت السرير، وكان يأخذ في اعتباره أن يبذل أقصي ما في جهده لمساعدة أسرته على التعامل مع المأزق الحالي.

دخلت أخته الحجرة، ورأته تحت السرير، فأخذت إناء اللبن معها، وبدلا منه جلبت معها عينات من أطعمة مختلفة، كي تري أي منها سيفضل تناوله. وحين انصرفت خرج "جريجور" من مكمنه، واكتشف أنه لا يحب تناول الطعام الطازج على الإطلاق، بل شعر أنه يفضل الجبن والخضراوات الفاسدة. رجعت أخته، وسرعان ما تخلصت من كل ما لم يأكله، ثم انصرفت، بينما ظلَّ هو يختبئ تحت السرير، كي يحررها من رؤيته غير السارة رغم أنه كان وضعا لا يريحه، خاصة بعد أن انتفخ جسمه من الطعام. واستمرت أخته تقدم له الطعام بعد ذلك في أوقات يكون فيها والداه نائمين والخادمة غير موجودة.

***

لم يكن أحد يتحدث مع "جريجور" ، لأنهم كانوا يفترضون أنه لن يفهم ما يقولون، وكان عليه أن يعرف ما يجري بالإنصات إلى المحادثات، التي تجري خارج الباب. كانت الأسرة قليلا ما تناقش أمره، بعد أن اعتادوا أن يظلّ أي اثنين منهم معا دائما بالبيت، طالما أن أحدا لا يريد أن يتركه وحده

معه. وحين اكتشفت الطاهية أمر تحوّله، رجت أبويه أن يسمحا لها بالمغادرة، فصرفوها.

اكتشف "جريجور" من الإنصات إلى المحادثات، أن أسرته لا تتغذي بشكل جيّد. كما أوضح أبوه صعوبة الموقف المالي للأسرة، وأنه يستخدم أحيانا ما ادخره من مال من عمله السابق، الذي انهار.. لم يكن "جريجور" يعرف شيئا عن هذا المال، لأنه حين انهارت أعمال والده رمي بنفسه إلى عمله، وتقدم في عمله، حتى يكون قادرا على أن يدعم أسرته.. كان يتذكر تلك الأوقات بسعادة، ولكنه تذكر أيضا أنه بعد سعادته الأولية، اعتادت الأسرة دعمه لها. وقد حافظ على رابطة قوية خاصة مع أخته، ورغب في أن يستخدم المال الذي يحققه كي يرسلها إلى الكونسرفتوار، كي تدرس العزف على الكمان، الذي كانت تهواه.

كان على "جريجور" أن يراقب تحركاته بحرص بالغ، لأنه إذا تسبب في أي ضوضاء ستسمعها الأسرة من خلال الباب، وتهتم بها. كما سمع من المحادثات، أنه بالإضافة إلى المال الذي وفره أبوه من عمله، أن الأسرة قد وفرت أيضا مبلغا محترما من راتب "جريجور"، الذي فكر في أنه كان يمكنه أن يستخدم المال ليسدد الدين لرئيسه، ويترك تلك الوظيفة مبكرا، ولكنه وافق على أن تخطيط أبيه كان الأفضل، لأنه وفر للأسرة بعض المال حاليا.. لم يكن ذلك كافيا للإبقاء على حياتهم لأكثر من سنتين على الأكثر، وينبغي أن يتم الاحتياط للطوارئ، وكان يشعر بالخجل، كلما جاء ذكر المال.

***

كان "جريجور" يستمتع بالنظر من النافذة،لأن ذلك يجعله يتذكر مدي اعتياده على التطلع من النافذة، قبل هذا التحول.. لكنه لاحظ أن نظره يزداد ضعفا، لدرجة أنه لم يستطع أن يميّز المنازل في الشارع. وكانت أخته

تهـرول كلما دخلـت إلى الحجـرة لتفتـح النافـذة، كما لو أنهـا لا تستطـيع احتمال أن تكـون معـه وحدهـا دون أن تفتـح النافـذة.. كانت هرولتها تضايقه.. وحـين تيقن أن مظهره يزعجها، ابتكر أسلوبا لتغطية نفسـه بمـلاءة؛ حتى لا تـراه على الإطلاق حين تكون في الحجرة.

لم يكن والداه يدخلان إلى حجرته أبدا، وكانت أخته تقدم لهما تقريرا بنشاطاتها بعد أن تنظف غرفته كل يوم. وقد رجتها أمه أخيرا،أن تراه، لكن الآخرين منعوها، وهو ما دعاها إلى الإلحاح على طلب الدخول.

كان "جريجور" يودّ أن يري أمه، لأنها قد تفهم الأشياء بشكل أفضل من أخته. كما اكتشف، في الوقت ذاته، أنه بينما كان يفقد شهيته إلى الطعام، كان يفضل أن يظل مستلقيا على الأرض طوال الليل، ملولا دون أن يفعل أي شيء، لذلك استمتع بالتسلق على الحوائط والسقف، وقد لوحظ ذلك، من خلال البقايا التي كان يخلفها وراءه.

وكانت أخته قد قررت أن تزيل كل الأثاث بالحجرة، حتى تترك له فراغًا أكبر فيها.. وطالما أن الخادمة كانت خائفة، ولم تكن جريتا تود أن تطلب المساعدة من أبيها، إضطرت أن تطلبها من أمه بدلا من ذلك. دخلا إلى الحجرة، لكنهما وجدا أن تحريك الدولاب ذي الأدراج كان صعبا. لكن أمه فكرت في أنه إذا كان عليهما أن يزيلا كل أثاثه، أفلا يبدو ذلك كما لو أنهم قد يئسوا من شفائه. وحين سمع "جريجور" صوت أمه، أيقن أنه يريد أن يبقي على أثاثه، على الرغم من أن ذلك يقيّد حركته، لكنه يبقيه مرتبطا بماضيه.

لفتت انتباه "جريجور" حركة الأثاث وتجوّل المرأتين بالحجرة، وحين خرجا للحظة زحف من أسفل الأريكة، وقرر أن عليه أن يحمي صورة المرأة ذات الفراء المعلقة على الحائط ، فزحف على الحائط ، والتصق



بالصورة.. دخلت "جريتا" وأمها، وحين شاهداه أغمي على أمه، وهرولت "جريتا" كي تحضر- بعض الدواء لإنعاش أمها، وتبعها "جريجور" محاولا تقديم يد العون. وحين استدارت الأخت، ورأته وراءها، سقطت زجاجة الدواء من يدها، وجرت إلى حجرته وأغلقتها عليها من الداخل، فحجزته بالخارج. وسرعان ما رجع والده إلى البيت، كي يكتشف أنه قد غادر حجرته، وتسبب في إغماء أمه.. حوصر "جريجور" في حجرة الجلوس بعد إغلاق باب حجرته، ولم يجد مهربا من أبيه، الذي طارده حول الغرفة، وبدأ يرميه بثمار التفاح، حتى غاصت إحداها في ظهره، مسببة له آلاما رهيبة منعته من الحركة. وبينما كان يفقد وعيه، رأي أمه وهي تجري إلى أبيه، راجية إيّاه أن يطلق سراح ابنها.

***

سببت إصابة "جريجور" له العرج، لدرجة أنه وجد من الصعوبة بمكان أن يتجوّل في الحجرة، ولم يعد يستطيع أن يتسلق الحائط. وكنتيجة لذلك، أكد الأب ضرورة أن يعامله كفرد من الأسرة، وليس كعدو، وهو ما دعاهم إلى ترك باب غرفة نومه مفتوحا، حتى يمكن أن يراهم متحلقين حول المائدة، بينما يظل هو مختبئا في الظلام.. ومع ذلك كانت انفعالات الأسرة شديدة الهدوء. كان أبوه يسقط في النوم بعد العشاء في كرسيه، وهو مازال مرتديا ملابس عمله، التي صارت متسخة.. وكانت أمّه تمارس الحياكة، بينما التحقت أخته بوظيفة بائعة، وراحت تدرس اللغة الفرنسية والاختزال. وكانت "جريتا" وأمها يناضلان يوميا لحمل الأب إلى الفراش.

أرهق ما حدث "لجريجور" جميع أفراد الأسرة إرهاقا شديدا. صرفوا الخادمة، واستأجروا بدلا منها خادمة نهارية تأتي مرتين يوميا، وتقوم بالأعمال الصعبة.. كما اضطرت الأسرة إلى بيع حليّها، ورغبوا في الانتقال إلى شقة أصغر.. لكنهم لم يفعلوا، لأنهم لم يستطيعوا التفكير في طريقة لنقله. لكن جريجور كان واثقا من أن الأسرة ليست لديها القدرة على الانتقال، فقد عودوا أنفسهم الشكوي من سوء الحظ. وكانت "جريتا" تجلس مع أمها كل يوم، بعد أن يغلقا باب حجرته.

بدأ "جريجور" يتذكر أناسا من حياته الماضية، مفكرا في حقيقة أنهم قد ابتعدوا عنه، ولن يقدموا أي عون له أو لأسرته. وبدأ تفكيره يقلّ في أن أسرته أصبحت تهمله.. لم يعد يضايق أخته أن تلتقط طعامه أكثر من ذلك، أو أن تنظف غرفته بسرعة شديدة وعلى نحو هزيل. كانت تصرّ، مع ذلك، على أن تظلّ هي الفرد الوحيد الذي ينظف حجرته، وحين قامت أمه بذلك مرة، ناحت "جريتا" في بداية الشجار مع أبيها حول الموضوع نفسه، الذي انتهي بتأنيب الأب لكل منهما.. كان "جريجور" غاضبا، لأنهما لم يغلقا الباب ليجنباه الضجة.

واكتشفت الخادمة النهارية "جريجور"، لكن ذلك لم يزعجها، بل كانت تتحدث معه، وكانت تدعوه بأسماء تضايقه. لم يكن يرد عليها، لكنها حين ضايقته بشدة ذات مرة، اندفع إليها، وسرعان ما هددته بأن رفعت عليه كرسيا، مما اضطره إلى الانسحاب من أمامها.

أصبحت حجرة "جريجور" مخزنا للمخلفات، بعد أن قبلت الأسرة ثلاثة مستأجرين أحضروا معهم أثاثهم، لذلك حشرت كل الأشياء، التي لم

تعد لها ضرورة في حجرته، الذي وجد أنه قد بقيت له مساحة محدودة للحركة.. لكنه استمتع بانتشار المخلفات حوله. كان المستأجرون الملتحون كثيري الشكوي بشكل حاد حول النظافة، وقد طالبوا وجادلوا حول ضرورة أن يعاد ترتيب الشقة، حتى لا يعود هناك أي شيء غير ضروري. وظلّ باب حجرته مغلقا دائما، لأن المستأجرين اعتادوا تناول طعامهم في الشقة. وحتي حين كان يفتح الباب، كانوا يتجاهلونه مع ذلك.. وكان هو قد توقف عن تناول الطعام كلية.

وذات يوم تركت الخادمة النهارية باب حجرة "جريجور" مواربا، بينما كان المستأجرون في غرفة المعيشة. قدّمت الأخت الطعام لهم، تفحصوه بحرص قبل أن يأكلوا.. كانت الأسرة تتنـاول طعامهـا الآن في المطبخ. ثم دخل الأب، وانحني للمستأجرين محييا. راقبهم "جريجور"، وهم يمضغون الطعام، فتيقن من أنه جائع حتى الموت، لكنه مع نقص الأسنان، لا يمكنه أن يتناول طعاما بشريا. وبدأت "جريتا" تعزف على الكمان في المطبخ، فطلب المستأجرون منها أن تدخل إلى حجرة المعيشة، وتعزف فيها. ظلّ والداه واقفين، حتى قدّم أحد المستأجرين كرسيا للأم. وبعد أن أنصت المستأجرون إلى عزف "جريتا" لفترة قصيرة، انتقلوا إلى النافذة، وبدأوا في الهمس لإظهار أنهم لم يعودوا مهتمين، بل وغير راضين عن عزفها.

كان عزف "جريتا" هو الذي اجتذب "جريجور"، فزحف خارجا من غرفته على الرغم من أنه كان مغطي بالقاذورات، وهو يتخيّل إمكانية إحضار أخته ثانية إلى غرفته، جاعلا إيّاها تعزف من أجله، وبعدها يخبرها بما خطط له من أمر إلحاقها بالكونسرفتوار.

لاحظ المستأجرون "جريجور"، وحملقوا إليه ساخرين.. حاول أبوه أن يدفعهم ثانية إلى غرفتهم، ولكنهم توقفوا في مكانهم، بينما أعلن المستأجر، الذي كان الآخران يتطلعان إليه، بأنه لن يدفع إيجار الأيام التي عاشوها هناك، بسبب الحالة المزرية للشقة. كما أبدي المستأجران الآخران ملاحظات أخري قبل أن ينسحبا إلى حجرتهما.. عند هذه النقطة، خطت أخته عدة خطوات إلى الأمام، وهي تقول لأبيها بعنف إنهما رعيا ذلك المخلوق لفترة طويلة بما فيها الكفاية، وإنهم ينبغي الآن أن يتخلصوا منه، وانفجرت في البكاء.. تساءل الأب عن كيفية التخلص منه، ولم تكن لدي "جريتا" أية إجابة، كما أنها استسخفت فكرة أن يفهم "جريجور" ذلك، وأصرت على قولها بأنه إذا كان هو "جريجور" فعلا، لمضي بعيدًا في طريقه، تاركا إيّاهم وحدهم، كما ادعت أن ذلك المخلوق يضايقهم، ويريد أن يحوّل الشقة إلى بالوعة.

حين حاول "جريجور" أن يستدير، ارتعبت "جريتا". بينما تمكن هو من أن يزحف متراجعا إلى حجرته وهو يتألم، وما أن دخل حتى صفعت أخته الباب مغلقة إيّاه وراءه، وسرعان ما أغلقته بالمفتاح. تيقن "جريجور"، وهو يتذكر رقته وحبّه لأسرته.. إن عليه الآن أن يتلاشي.. كان متفقا تماما مع أخته، فمات بينما كان الفجر يشرق.

وصلت الخادمة النهارية في اليوم التالي، فتأكدت من أن "جريجور" قد مات، وأعلنت تلك الحقيقة للأسرة، فشكروا الإله، ثم تراجعوا إلى حجرة نوم الأبوين ليحزنوا، حين خرج المستأجرون، ولم يجدوا إفطارا لهم، بدأوا في التذمر، لكن الخادمة النهارية أرتهم الجثة. عندئذٍ تجرّأ السيد سامسا

وطلب منهم مغادرة المسكن، فحاولوا المقاومة، ولكن عنفه أجبرهم على الرضوخ، وسرعان ما غادروا.

قررت الأسرة أن تخرج في نزهة معا.. فكتب كلّ من الأب والابنة مذكرتي إجازة إلى صاحبي عملهما.. ضايقهم وقوف الخادمة النهارية أمامهم، بعد أن أخبرتهم أنه قد تمّ التخلص من الجثة، وبينما كانت تنصرف صافعة الباب من خلفها، أعلن السيد "سامسا" أنه سيصرفها في المساء. عندئذٍ وقفت الأم و"جريتا" في النافذة، لكن السيد "سامسا" دعاهما للخروج، فانصرفوا معا. ركبوا الترام كي يذهبوا إلى الريف، مقررين وهم في طريقهم أن المستقبل لا يبدو سيئا، طالما أن وظيفتيهما ستسمح لهما بمستقبل أفضل؛ لأنهم سرعان ما سيكونون قادرين على الانتقال إلى شقة جديدة، أصغر ويسهل ترتيبها، ولا تشبه تلك التي اختارها "جريجور". فجأة تيقن السيد "سامسا" وزوجته أن ابنتهما أصبحت جميلة جدا، وأن ذلك هو الوقت المناسب كي يبحثا لها عن زوج.. وحين وصل ترامهم إلى محطتهم، كانت أول من قفز على قدميها بنشاط.



أوسكار وايلد

« صورة دوريان جراي »

في يوم ربيعي صحو، قابل الرسام المشهور بازيل هالوارد صديقه اللورد هنري وتون في مرسمه في لندن. كان لورد وتون قد أبدي إعجابه بعمل الرسام الأخير، الذي كان قيد الإنجاز، وهو صورة شخصية كاملة لشاب جميل الطلعة. ومن شدة إعجابه بها طالبه أن يعرضها في معرض لوحاته القادم، لكن الرسام اعترض بأنه لن يفعل ذلك أبدا، لأنه وضع في تلك اللوحة كثيرا من نفسه، فضحك اللورد وتون من كلماته. كان قد أخطأ مقصده، حين ردّ قائلا إنه ليس شيئا سوي ولد في لوحة. وبدا من مناقشة لورد وتون أنه يتحدث غالبا بتحرّر ساخر، وبأقوال مأثورة موهمة بالتعارض ظاهريا، بينما كان بازيل رجلا بسيطا يحمل قيما رومانسية نقية، وقد بلور بازيل رؤيته، قائلا: "إنّ أي صورة شخصية رسمها الفنان بإحساسه، هي صورة شخصية له، وليست لمن وقف أمامه".

وسرعان ما تحولت المناقشة إلى صاحب الصورة، الذي وصفه بازيل بأنه عفيف النفس وفتي ساذج، يدعي دوريان جراي. أصرّ هنري على مقابلته، لكن بازيل رفض، لأنه كان يريد أن يحمي براءة الفتي الطاهرة من تأثير المذهب الحسّي الساخر للورد وتون. وقد بدا واضحا أن بازيل يحمل مشاعر قوية لدوريان معتمدة على الإعجاب ، لكن بازيل تكدّر حين أعلن رئيس الخدم عن وصول دوريان جراي غير المتوقع، فناشد الفنان لورد

وتون، بقوله: "إنه ذو طبيعة بسيطة جميلة، فلا تفسده .. لا تنتزع مني الشخص الوحيد، الذي منح فني أي سحر يمتلكه".

جري تعريف لورد هنري على دوريان، وتبادلا الحديث، بينما كان بازيل يعدّ ألوانه وفرش عمله، وسرعان ما انجذب وتون إلى سحر الفتي ووسامته، كما انبهر دوريان بمهارة حديث هنري ورؤاه الأخلاقية غير التقليدية. طلب بازيل، شاعرا بالغيرة، من هنري أن ينصرف حتى يستطيع دوريان أن يتخذ وضعية الرسم بهدوء. لكن دوريان أصرّ على بقاء هنري، فلان بازيل، بينما استمرّ هنري في أدائه المبهر مرتجلا محاضرة حول أن الناس ينبغي أن ينشغلوا بشكل أقلّ، حتى "يتأكد كل فرد من طبيعته بشكل كامل".

لاحظ بازيل وهو يرسم، أن نظرة لم يرها من قبل أبدا قد بدت على وجه الفتي.. إنّها نظرة استبصار يهجس بها الفنان أحيانا. جعلت محاضرة لورد وتون الفتي دوريان يشعر "بتأثيرات عذبة بمجرد الحديث معه"، واندهش من أنه يمكن أن يكون "لمجرد كلمات" مثل هذا التأثير. رأي لورد وتون بوضوح ما كان له من تأثير على دوريان وكان فخورا به. وبينما كان بازيل يضع اللمسات الأخيرة على لوحته، انسحب دوريان وصديقه الجديد إلى الحديقة. وهناك أخبر هنري الفتي، أن "لا شيء يشفي الروح سوي الحواس، كما أن لا شيء يشفي الحواس سوي الروح"، وأنه "يمتلك شبابا معجزا، والشباب وحده هو ما يستحق أن يمتلك". ثم تحوّل الحوار إلى الجمال، فأكدّ هنري أن للجمال "سيادة حق مقدس"، لأن الجمال يمنح سلطة لمن يمتلكونه، ليس هناك أعظم منها. ثم حذّر دوريان من أن جماله سيذوي ذات يوم، وهو المعني الذي أرعب الفتي الحسّاس.



وسرعان ما أبلغهما بازيل أن الرسم قد اكتمل، وعند رؤية اللوحة استولي الفرح على دوريان، واندهش من جماله. كان ذلك أول انطباع واضح بالزهو. وحالما فكّر كم كان جماله ثمينا، تذكر كلمات لورد هنري عن زوال الشباب، فتحوّل إلى سخط عارم على اللوحة، لأنها ستبقي على جماله حيّا، بينما يمضي هو على درب العجز والشيخوخة.

عندئذٍ واتته فكرة في لحظة انفعال: "لو أمكن لي أن أظلّ شابا على الدوام، بينما تمضي اللوحة نحو الشيخوخة! قد أهب روحي من أجل تحقيق ذلك!". وحين رأي بازيل مدي إحباط دوريان، سحب سكينا، وتحرّك نحو اللوحة كي يدمّرها ، لكن دوريان منعه، قائلا بأن ذلك يعتبر جريمة، لأنه قد وقع في هوي العمل فعلا، فوعده بازيل أن يمنح دوريان اللوحة كهدية. ثم أخبره بأنها ستسلّم إليه بمجرد أن تجفّ وتصقل.

اندهش لورد وتون من تصرف دوريان ؛ ثم وضع الاثنان خططا للذهاب إلى المسرح معا في تلك الليلة. اعترض بازيل، وطلب من دوريان أن يتناول العشاء معه بدلا من ذلك، لكن دوريان اعتذر عن قبول عرضه، قائلا وهو ينصرف مع لورد وتون بأنه سيكلمه غدا.

***

في اليوم التالي، زار لورد وتون عمّه الدائم التذمر، اللورد جورج فورمر، كي يطلعه على ما يعرفه من ماضي دوريان جراي.. كان عمه عجوزا، عاطلا، أمضي معظم حياته ينتقل بلا مبالاة عبر الدوائر الاجتماعية البورجوازية، مكرسا نفسه " للدراسة الجادة لفن الارستقراطية العظيم في عدم فعل أي شيء على الإطلاق"، وهو ما جعل منه مصدرا مثاليا

للمعلومات، التي تتعلق بحياة الأفراد الخاصة.. كان كل ما على لورد هنري أن يفعله أن يذكر أن دوريان "كان الحفيد الأخير للورد كلسو".

أخبر لورد فورمر ابن أخيه، أن والدة دوريان، هي مرجريت دوفرو، ابنة لورد كلسو الجميلة، التي أزعجت أباها وسببت له فضيحة بالفرار مع رجل فقير من الطبقة الدنيا، ففكر لورد كلسو ممرورًا في الانتقام، وقام بدفع فتي بلغاري لإهانة زوج ابنته غير المرغوب، حتى يجبره على قتال مفتعل، أودي بحياته، وسرعان ما لحقت به أم دوريان بعد عدّة أشهر.. لكن ظروف الموت الخاصة تلك لم تؤدي إلى أن تقع حضانة دوريان على لورد كلسو، الذي سرعان ما نبذ من الآخرين، لما تسبب فيه من محنة. كان كلسو مشهورا بأنه شخص مشاكس مشتت الروح، يثير مشكلات فاسدة دائما، وهو يساوم سائقي مركبات الأجرة ويقوم بأفعال أخري مشابهة.

غادر هنري بيت لورد فورمر، كي يحضر غداء خفيفا في بيت عمته، ليدي آجاثا. فكّر في طريقه.. كم وجد حكاية دوريان مثيرة للدهشة، وهو ما يجعل حياته "غريبة، حديثة تقريبا، ورومانسية". كان هنري مستثارا بإمكانية تشكيل شخصية الفتي، بتفتيح عينيه على العالم الحسّي، الذي كرّس هنري حياته له، فكّر كيف أن ذلك الفتي "يمكنه أن يكيّف نفسه بأسلوب مدهش"، وأنه "قد يهيمن عليه، وقد يجعل تلك الروح العجيبة خاصته".

وصل هنري إلى تجمّع الغداء متأخرا، كما جرت عادته. لكنّه ما أن جلس إلى المائدة، حتى استحوذ على الحديث، مبهرا الضيوف ببلاغة خطابه على نحو مثير، وهو يعارض بأنه يعتقد أنه "ما أن يستعيد الإنسان شبابه، فإنه سرعان ما يرتكب الأخطاء الغبية نفسها"، "ليكتشف الناس بعد أن يكون الوقت قد تأخّر تماما، لأن الأشياء الوحيدة التي لم يندم عليها الفرد أبدا، هي

أخطاؤه". كان سحر خطابه المسهب يكمن في تصوير دقيق وفق خدع وحيل .. كان دوريان بين الضيوف، وكان هنري يؤدّي من أجله أساسا.

لم تكن جهوده بلا جدوي: فما أن انتهي الغداء؛ حتى اقترب منه دوريان معبّرا عن إعجابه، وهو يقول: "لا أحد يتحدث ببراعة كما تفعل". واصطحب لورد هنري إلى الحديقة، بدلا من مكالمة بازيل، كما سبق أن وعد.

***

بعد مضي شهر قام دوريان بزيارة هنري في بيته، حيث قابل زوجته، التي كانت سعيدة بلقاء الرجل، الذي أصبح زوجها مشغولا بأمره. وحين علق دوريان بأن الفرد يجبر على المشاركة في الحوار، إذا ما كانت الموسيقي سيئة، عقبت الزوجة، بأنّ "ذلك واحد من آراء هنري. إنني أسمع آراءه دائما من أفواه أصدقائه، وذلك هو الأسلوب الوحيد للتعرف عليهم"، وسرعان ما وصل هنري (أو هاري)، فانصرفت زوجته، وعندئذٍ نصح هنري دوريان بألاّ يتزوج أبدا امرأة رقيقة كزوجته، التي كثيرا ما يلومها على جمال شعرها.

وسرعان ما أفضي دوريان بما لديه من أخبار جديدة، أراد أن يتشارك فيها مع هنري: لقد وقع في حبّ فتاة تدعي سيبل فين، وهي ممثلة تلعب دور أنثي شابة متميّزة في مسرح مخصص فقط لأعمال شكسبير. كان المسرح والممثلون من نوع فقير، لكن سيبل كانت ممثلة لامعة ذات جمال آسر، وقد مضي إليها دوريان في الكواليس بعد حضوره العرض الثالث.. فوجدها غير معنية تماما بموهبتها، غير قادرة على أن تفصل بين الحياة الحقيقية والحياة على المسرح. كما أخبر هنري، أنها تفضل أن تدعوه "الأمير الساحر"، لأنّها لا تنظر إليه "إلاّ كمجرد شخص في مسرحية، فهي

لا تعرف شيئا عن الحياة". كان لهذا النقاء والسذاجة سحر يفوق الوصف بالنسبة لدوريان، فوقع بجنون في حبّها، وأخبر هنري أنه يعبدها، وأنه الأمر الوحيد الذي يهمّه.

كما أقنع دوريان هنري أن يأتي معه، كي يراها وهي تؤدي دور جولييت في عرض اليوم التالي، فعقّب هنري بأنه سيدعو بازيل.. عندئذٍ أشار دوريان، عند ذكر بازيل، إلى أنه يشعر بالذنب، لأنه تجاهل الرسام لعدة أسابيع، على الرغم من أنه أثني على صورته الشخصية كعمل رئيسي له، شاعرا "بغيرة قليلة، لأن الصورة أصبحت أصغر مني بشهر كامل".

ثم تحوّلت المناقشة إلى شخصية الفنانين، وأصرّ هنري على أنه يكون الفنان أفضل كلّما كانت شخصيته أكثر غباء، وأن ذلك هو الشيء المرعب الصادق الوحيد الذين يستحقون بسببه تمضية الوقت معهم.

وأخيرا استعد دوريان للانصراف. ومؤخرا في تلك الليلة عند عودة هنري إلى بيته، وجد تلغرافا من دوريان يخبره فيه أنه قد خطب سيبل للزواج.

***

أخبرت سيبل فين أمّها بكل حكاية حبّها لدوريان، الذي كانت تشير إليه "بالأمير الساحر"، بعد أن وعدته بأنها لن تكشف عن اسمه الحقيقي لأحد.. كانت السيدة فين شديدة القلق على سعادة ابنتها على موقف الأسرة المالي، فذكّرت سيبل بالمال الذي يدينون به للسيد إيزاك، مالك المسرح، ولكنها لم تكن تهتم بأحد سوي أميرها الساحر، فجاشت نفس السيدة فين بالانفعال، حتى بدت كما لو أنها تؤدي دورا على المسرح.

دخل جيمس الأخ الأصغر، لسيبل ..والذي كان يرغب أن يتنزه مع أخته ويودع أمه، لسفره إلى أستراليا كبحّار. لم يكن ممثلا، بل كان يكره

المسرح والمدينة! كان شابا قوي الجسم، قصير القامة، شديد الجدية. كان يأمل ألاّ يعود ثانية إلى لندن، إلاّ بعد أن يوفّر كثيرا من المال، حتى لا تمارس أمّه وأخته التمثيل.. حين انصرفت سيبل كي تستعد للخروج معه، حثّ جيمس أمه على حمايتها. كان شديد الغيرة في حمايته لأخته، متشككا في الموقف، طالما أن سيبل لم تكن تعرف اسم خطيبها.. ذكّرت السيدة فين ابنها بأن الأمير الساحر سيّد مهذب، ومن الممكن أن يكون زواجًا مريحًا جدًا للأسرة.

رجعت سيبل، وانصرف الأخوان معا.. كان الآخرون يحملقون في سيبل أثناء نزهتها، لأن جمالها كان يتناقض مع قصر قامة جيمس ومظهره الأشعث.. تخيّلت سيبل حياة أخيها كبحار، بأنه سيجد ذهبا في أرض بعيدة، ويطارد لصوصا، وينقذ وريثة جميلة. لكن جيمس كان حزينا بسبب علاقة أخته، وأخبرها أنه لا يثق في خطيبها.

دافعت سيبل عن دوريان، وهي تشير إليه دائما بالأمير الساحر، وأخبرت جيمس أنه سيتفهم مشاعرها بمجرد أن يقع بنفسه في الحب.. ثم لمحت سيبل دوريان راكبا عربة في الجوار، فجري جيمس حتى يري كيف يبدو. لكن العربة أسرعت مبتعدة.. علق جيمس: "كنت أتمني لو شاهدته لأنه بقدر ما أنا متأكد من وجود إله في المساء، فإنني أقسم أنه إذا ارتكب معك أي خطأ فسأقتله". لكن سيبل وبّخت أخاها لمزاجه السيئ، ولم تأخذ تهديده بمأخذ الجد.

وبعد عودتهما إلى البيت للعشاء، حذر جيمس أمه، بأنه "إذا ارتكب هذا الرجل أي خطأ في حق أختي، فسأكتشف من هو، وسأقتفي أثره، وأقتله ككلب". أعجبت الأم بميلودرامية كلمات ابنها وأسلوبه التهديدي، ولكنها كانت تشعر بالراحة حين تحاكي الحياة المسرح، ومع ذلك كان

رحيل جيمس قد خيّب أملها، لأن الوداع القلبي العنيف الممكن "ضاع أثره تماما وسط التفاصيل العامة" أثناء المساومة مع سائق المركبة.

ناقش لورد هنري وبازيل هالوارد خطوبة دوريان في منزل الرسّام. كانا يخططان لتناول العشاء مع دوريان في تلك الليلة قبل الذهاب لمشاهدة عرض سيبل.. لم يصدّق بازيل أن دوريان قد خطب فعلا، قائلا: لابد أن دوريان كان بعيدا عن التفكير السليم، حين اتخذ مثل هذا القرار المتهوّر. وقد رد هنري قائلا: "إنّ دوريان ليس بعيدا عن ارتكاب مثل هذه الأفعال الطائشة ما بين آونة وأخرى".. اندهش بازيل من ابتعاد هنري عن الافتتان بحياة دوريان. لم يكن الفنان موافقا على أفعال دوريان فحسب، بل وكان قلقا حول صحته العاطفية، بينما كان هنري مبتهجا، وهو يعرف أنه مهما كان ما سيحدث، فسيكون تسلية عظيمة.

وصل دوريان.. كان مصرّا على أن يقدما إليه التهاني. قال بازيل إنه آذاه أن يسمع عن خطبته من هنري، وليس من دوريان نفسه، ولكن هنري سرعان ما غيّر الموضوع.. أراد دوريان أن يوافق بازيل على تصرفاته، قائلا: "يا للسماء، أو لم أكن على صواب، يا بازيل في أن أستخرج حبي من الشعر، وأن أجد زوجتي في مسرحيات شكسبير؟".. وافق بازيل على مضض على كلمات دوريان. تهكم هنري ساخرا من طبيعة الأعمال مثل الزواج، بينما اعترض بازيل، قائلا: "إنّ دوريان ليس مثل الرجال الآخرين.. إنه لن يجلب الحزن لأحد. إنّ طبيعته مهيأة جدا لذلك". استمرّ هنري في التفلسف حول طبيعة المرأة، وكيف تمثل حين تحب، قائلا: "تعاملنا النساء تماما مثلما تعامل الإنسانية آلهتها.. إنهن يعبدوننا، ودائما ما يضايقوننا بضرورة أن نفعل شيئا من أجلهن".. كان دوريان متأكدا من

أن تمثيل سيبل الجيّد سيضع حدا لتهكم هنري، ويصلح كل الاختلافات بين الرجال الثلاثة، لأنهم حين يرونها وهي تمثل، سيخضعون لتأثير جمالها دون أي اعتبار آخر. وهكذا انصرف الرجال الثلاثة لمشاهدة مسرحية "روميو وجولييت".

كان المسرح مزدحما على نحو مذهل في تلك الليلة.. وما أن جلسوا في مقصورتهم، حتى لاحظ لورد هنري التصرفات البغيضة لرواد المسرح من أبناء الطبقة الدنيا البغيضة.. طمأن بازيل دوريان بالنسبة لتهكم هنري. وبدأت المسرحية، فلاحظوا جميعا كم كانت الفرقة الموسيقية رهيبة، وظهرت سيبل على المسرح. بدت جميلة، لكنها كانت تمثل بشكل رهيب.. كان صوتها فاتنا، لكن "من وجهة نظر اللهجة" كان "مزيفا تماما".. كان دوريان مرتعبا ومشوّشا.. كان الرجلان الآخران غير راضين، ولكنهما كانا من التهذيب بحيث لم يبديا أي ملاحظات.. كان أداؤها عادة هو الشيء الوحيد، الذي ينقذ المسرح من عروضه السيئة، ولكنه كان يزداد سوءًا كلما تقدم عرض المسرحية، حتى استهجن الجمهور العرض بعد الفصل الثاني، ونهض ضيفا دوريان للانصراف.

حاول بازيل أن يريح دوريان، قائلا بأن سيبل لابد وأن تكون مريضة، ولذلك لا ينبغي أن يكون مستاء، طالما "إنّ الحب أكثر جمالا من الفن" على أية حال، وهو ما ردّ عليه هنري بأنه "بالنسبة لكليهما فإن ذلك يعتبر ببساطة نوعا من المحاكاة". ولم يكن ممكنا مواساة دوريان؟ لكن هنري طلب منه أن يستبشر طالما "إنّ سرّ الاحتفاظ بالشباب ليس بأن يكون لديك عاطفة، فهو أمر غير لائق".

انصرف الرجلان، وأجبر دوريان نفسه على أن يعاني عبر بقية العرض، ثم اندفع بعد ذلك إلى الكواليس ليواجه سيبل. سرّها أن تراه، لكنها

تعجبت من غضبه، طالما يفترض أنه سيعرف السبب في ذلك العرض الرهيب.

وحين سألها أن تخبره عن السبب في أدائها السيئ، أخبرته أنها بعد أن قابلته، لم تعد تؤمن بالمسرح قبل دوريان، قالت: "كان التمثيل هو الحقيقة الوحيدة في حياتي "، والآن فإنّه قد "حرر روحي من سجنها"، و"علمني ما هو الواقع فعلا"، واستطردت قائلة، إنها بعد أن جرّبت الحبّ الحقيقي، فإنه "سيكون تدنيسا لي أن أمثّل أنني واقعة في الحب". كان دوريان مرتعبا، مزدريا لها، وغير قادر إطلاقا على أن يحبها أكثر من ذلك.. لم تستطع أن تصدّق ذلك، وحين تملص من لمستها، سقطت على الأرض، وهي تحبو على ركبتيها.. كان دوريان يشعر باشمئزاز أكثر منه تعاطفا، فتركها وهي تنتحب على الأرض.

كان دوريان فاقد الحس بغرابة، وغير قادر على أن يتوصّل إلى أسباب فقدان سيبل لموهبتها، أو قسوته غير المتوقعة باتجاهها، فراح يتجوّل بلا هدف في المدينة حتى الفجر. ثم رجع إلى البيت، حيث ألقي نظرة على لوحة صورته الشخصية التي رسمها بازيل، فانزعج حين وجد أن تغيّرا طفيفا قد حدث لتعبير وجهه: بدا أن هناك "لمسة من قسوة على الفم".. حكّ عينيه، وغيّر الإضاءة، لكن كان مؤكدا أن اللوحة قد تغيّرت. ذكرته قسوة التعبير، بقسوته مع سيبل، لكنه شعر أنه أخطأ لابتئاسه لما سببت له بتمثيلها السيئ، وعزّي نفسه بالتفكير بأن "النساء مناسبات أكثر لتحمّل الأسي من الرجال. . حتى يُتَّخَذن عشيقات، ليكون ذلك بمثابة قيامهن بمشاهد مع شخص ما". هذا ما قاله لورد هنري، الذي يعرف من هنّ النساء. عندئذٍ تيقن دوريان وهو غير قادر على تفهّم تحوّل الصورة. وبعد تفكير

طويل، أيقن أنها "تحمل سر حياته، وتحكي قصته. . تغيّرت أم لم تتغيّر، فإنّها بالنسبة له إشعار ظاهر للضمير". غطي اللوحة بملاءة، وذهب لينام.

***

أيقظ فيكتور، الخادم، دوريان من النوم، بعد أن نام حتى الساعة الواحدة والربع بعد الظهر. رأي أن رسالة قد وصلته من لورد هنري، لكنه تركها دون أن يفضها. كان يشعر بانتعاش، وتناول إفطاره سعيدا. شعر بأن الليلة الماضية لم تكن أكثر من حلم. ومع ذلك، فقد قوطعت فترة سعادته حين رأي الملاءة ملقاة على اللوحة. وفكّر كم كان غبيّا حين تخيّل أن اللوحة قد تغيّرت، وقرر أن يختبر الأمر ثانية فقط كي يتأكد. كان عصبيا لكونه ربّما يتصرف بغرابة، فأخرج فيكتور من الحجرة، وغلق كل الأبواب، وأنزل الستائر، ونظر إلى اللوحة، فتأكد له بشكل كاف، "أنه أمر صحيح تماما. لقد تغيّرت اللوحة". تعجب دوريان لإمكانية حدوث ذلك، سواء أكان هناك تفسير علمي، أم سبب ميتافيزيقي قابل للتغيير.

كان تعبير القسوة المرتسم على الوجه في اللوحة يذكره بمعاملة سيبل السيئة، فكتب لها رسالة حبّ عاطفية، مستشعرا الذنب، بأنه على الرغم من أنه رأي سيبل وكان قاسيا تجاهها، فإنه لم يأسف على أي ممّا فعل، منذ "أن علمتني كيف أعرف نفسي بشكل أفضل". ابتهج هنري حين وجد دوريان في حالة معنوية طيبة، لكن حين أخبره الشاب عن خطته كي تكفّر روحه عما فعل بالزواج من الممثلة المسكينة.. بدا من الواضح أن هناك سوء فهم، فقد كانت سيبل فين، كما كتب له هنري في رسالته التي لم تفضّ، قد انتحرت بتناول السم.

قال هنري بأنه سيجري تحقيق، لكن دوريان عقّب بأنه ليس لديه ما يخشاه طالما أنّ أحدا لم يره وهو يدخل إلى الكواليس، أو عند مغادرته

المسرح، وطالما أن سيبل لم تخبر أي شخص باسم خطيبها الحقيقي. رجا هنري دوريان ألاّ يتورط في الموقف، لأن مثل هذه الفضيحة قد تدمّر سمعته، وطلب منه أن يأتي لمشاهدة الأوبرا معه في تلك الليلة. وبعد أن مرّت الصدمة الأولية، أجاب دوريان عن أخبار موت سيبل بتعقيب غريب: "وهكذا قتلت سيبل فين"، وفكّر "طالما أنني متأكد من أن الأمر كما لو أني قطعت حلقها بسكين. وأخيرا، فإنه حتى الورد ليس أقلّ محبة من كل ذلك".

وأثني دوريان، تحت تأثير هنري، على موت سيبل باعتبار أنه "نهاية جميلة لمسرحية جميلة". وقد انزعج دوريان باختصار بسبب تعقيبه العاطفي.. لكن هنري سرعان ما خفّف من إحساسه بالذنب، بأن مأساوية الحياة غالبا "ما تؤذينا .. بافتقادها التام للأسلوب". طالما أن سيبل قد ماتت ذلك الموت المأساوي، ولأجل هذا الغرض النبيل، مثل الحب، فإن الموقف كان فعلا، كما يعتقد هنري، أن على دوريان أن يرضي ويسرّ به . لقـد مضي هنري إلى ذلك كي يقرر أنه طالما أن الفتاة لم تكن حيّة أبدا على المسرح، وطالما أن حبّ دوريان لها قد تجذّر في إعجابه ببطولاتها، التي مثلتها، فإن "الفتاة لم تعش أبدا في الواقع، وأنها لم تمت أبدا في الواقع.. لا تبدد دموعك على سيبل فين. إنّها أقل واقعية من شخصيات شكسبير". شكر دوريان هنري لكونه مثل هذا الصديق الطيب الصادق.

انصرف هنري، ورجع دوريان ثانية ينظر إلى اللوحة. لم تتحرك السـخرية الوضيعة، وهو ما جعل دوريان يفكّر في أنه "وصلتها أخبار مـوت سيبل فين قبل أن تصله هو نفسه". بعد مزيد من التأنيـب، واسـي دوريـان نفـسه بالتفكـير بأنه طالما أن صورته الشـخصية تمثل شخصيته

الحقيقية، فإنها ينبغي أن "تتحمل وزر خجله"، وهو ما سمح له بالتمتع بحياة خالية من الذنب.. كان يري أنه ليس هناك داع في التفكير في سبب تغيّر الصورة، وقرّر أن يسمح لنفسه ببساطة أن يتسلي بما يطرأ عليها من تطوّر.

وسرعان ما غادر دوريان بيته، ليلحق باللورد هنري في الأوبرا.

* * *

زار بازيل دوريان في اليوم التالي، وقد صدمه أن يعرف أنه كان في الأوبرا وسط تلك الظروف.. كان مذعورا أيضا من أن دوريان بدا أنه لم يتأثر إطلاقا من انتحار سيبل. دافع دوريان عن نفسه بإخبار بازيل، بأنها "عبرت ثانية إلى محيط الفن. هناك ظل من الاستشهاد في فعلها"، واتهم بازيل بأنه أناني، طالما أن غضبه ينبع من حقيقة أنه ليس هو الفرد الذي يواسيه، ويخبره بضرورة أن ينسي ما حدث، أو "أن يراه خلال وجهة نظر فنية صحيحة".

مع ذلك.. فقد اعترف دوريان بتأثره بشدّة بلورد هنري. كما أعرب بأنه يعرف بأن بازيل قد يكون أفضل كثيرا من هنري. وحين سمع الرسام ذلك، تغلب عليه تأثره القديم، فتساءل عمّا إذا كانت الشرطة قد استدعت دوريان، فضايق ذلك الظن دوريان، لكنه أكّد لبازيل بأنه ليس هناك من بين المتورطين من يعرف اسمه، وطلب من بازيل أن يرسم لوحة لسيبل، لكن بازيل طلب منه بدلا من ذلك أن يحضر ثانية ليقف أمامه ليرسمه مرة أخري، وهو ما سارع دوريان إلى رفضه رفضا تاما.

وحين لاحظ بازيل أن اللوحة مغطاة، طلب أن يراها ثانية، لكن دوريان هدده بألاّ يتحدث معه مرة أخري، إذا حاول أن يرفع الغطاء عن

اللوحة، فقد قرر ألاّ يشارك أبدا سر اللوحة مع أي فرد. قال بازيل أنه يودّ أن يعرض اللوحة، طالما أنه يعتبرها تحفته الفنية، لكن دوريان قرّر أن ذلك أيضا يخرج عن نطاق أي سؤال، فتساءل الفنان عمّا إذا كان دوريان قد رأي شيئا في اللوحة أزعجه إلى تلك الدرجة؟ أجاب دوريان، وهو يعتقد أن بازيل يعرف فعلا بسحر اللوحة: إنّ هناك شيئا فعلا، لكنه طلب من صديقه أن يفسّر ذلك، فاعترف بازيل بعبادته الوثنية لدوريان، وقال إنه قد صدم بذلك الكم الذي صدر عن اللوحة. تضايق دوريان، ولم يتأثر بتأثر الفنان، وقرّر أنه لن يجلس مرة أخري لرسم صورة شخصية له، فصرخ بازيل بأن رفض دوريان "سيفسد حياتي كفنان"، ثم انصرف. بينما تزايد إحساس دوريان بازدواج شخصيته، فقرّر أن يخفي سره، مصمما على أن يخبىء الرسم كلية عن الأنظار.

طلب دوريان مفتاح الحجرة العلوية من مسئول خدمة الغرف، بينما أخبره فيكتور أن الرجلين اللذين طلبهما لنقل اللوحة قد وصلا، فأرسل دوريان خادمه إلى لورد هنري طلبا لكتاب يقرأه، بينما حمل السيد هيبارد، صانع إطارات اللوحات، ومساعده اللوحة إلى الغرفة العلوية، دون أن يزيلا عنها الغطاء بناء على تعليمات دوريان. تساءل دوريان عن إمكانية عرض اللوحة، التي يعتبرها بازيل تحفته الفنية. لكنه كان يعرف أنه حتى لو تمّ التهرّب من بشاعة الخطيئة، فإن أخطاء العمر ستظل كامنة فيها؛ لذا ينبغي أن تخفي بعيدا عن الأنظار إلى الأبد، حتى "لا تري عين أخري عاره ".

ما أن انصرف السيد هيبارد ومساعده، حتى رجع دوريان إلى مكتبته فوجد مذكرة من لورد هنري، مع مرفق من جريدة، وكتابا أصفرَ قديما. كانت هناك علامة حمراء على الجريدة تلفت انتباه دوريان إلى مقالة صغيرة

توضّح أن التحقيق في موت سيبل قد انتهي إلى اعتباره انتحارا مؤكدا. كان إذًا بعيدا عن الشك، فبدأ يقرأ الرواية التي أرسلها له هنري. كانت تدور حول شاب فارسي "أمضي حياته محاولا أن يتيقن .. من كل أهواء وحالات الفكر، التي تنتمي لكل قرن باستثناء قرنه".. وانهمك دوريان في قراءة الرواية، و"استعاراتها الوحشية مثل الأرجوان الرقيق اللون"، حتى أنه تأخّر عدّة ساعات عن ارتباطه مع لورد هنري.

أصبح دوريان، في السنوات التالية، مسكونا بالكتاب الذي أعطاه له لورد هنري.. اشتري نسخا مضاعفة من طبعته الأولي، وربطها بألوان مختلفة بحيث تناسب مختلف حالاته النفسية. بدا الكتاب بالنسبة لدوريان، كأنّه "يحتوي قصة حياته نفسها، مكتوبة قبل أن يعيشها". بدا دوريان، مثل بطل الكتاب، مغامرا بنفسه في مختلف الأهواء، شاملة الدين، والتصوف، والموسيقي، والمجوهرات، والأنسجة القديمة المزدانة بالرسوم، بل والدراسة لأسلافه أنفسهم. ومع ذلك ، فإن دوريان سرعان ما تغيّرت أهواؤه بمجرد أنها لم تعد تثير اهتمامه، متتبعا أهواء رغبة جديدة مع هوي فنان. وتعلق بكل هوي حالي بتحمس، دارسا ومتطلبا لأمثلة خيالية منها بقدر ما يستطيع أن يجد. اشتري عباءات إضافية مغطاة بمئات اللآلئ ليثير اهتمامه بالمجوهرات، والأنسجة القديمة ذات الرسوم بخيوط ذهبية، لتثير فضوله بفن الزخرفة. وحالما كان يجد أن موضوعا قد استنفد نفسه في ذهنه.. كان سرعان ما يسقطه من أجل اهتمام تال.

هكذا، استمر دوريان لمدة 18 عاما تالية في أسلوب حياته مندفعا وراء نزواته. وكان مزاج دوريان، في الحقيقة، يستدعي كلمات لورد هنري "بالنسبة إليه بالتأكيد، فإنّ الحياة نفسها كانت أول وأعظم الفنون". لم يكن مهمّا مدي كثافة إقبال دوريان على أمر، "لم يبدو أنّ أي نظرية للحياة لها

أهمية مقارنة بحياته نفسها. كان يشعر بوعي مخلص بمدي عقم كلّ فكر متأمل حين ينفصل عن الفعل والتجربة".

كانت "تجارب" دوريان اجتماعية النزعة غالبا في طبيعتها، وأصبح سيئ السمعة في دوائر لندن الارستقراطية، مثل نزعة مستقرة مرتدية أحدث الموضات، وهو يبدو كمثال لحسن الذوق. قلده الشباب، وانجذبت إليه الشابات، ومع ذلك.. فإن من رغبوا أن يصادقوه غالبا ما دمّروا، وازدراهم دوريان في نهاية الأمر بقدر ما أعجب بهم. بدا أن اللورد هنري هو الصديق الوحيد الحميم، الذي ارتبط بدوريان عبر السنين. وبدأت القيل والقال تلاحق دوريان أينما ذهب، وأصبح غير مشهور، بل وخسيسًا في بعض الدوائر الاجتماعية. ومع ذلك، فقد ظلّ جذابا وسيم الهندام كما كان دائما، واستمرّ في أن يكون محلا للإعجاب به بسبب من ذوقه الفاتن. لم يكن مهمّا كيف تحدث عنه مساكين الناس، فإنّ جمال الفتي وبراءة وجهه الطفولية لم تفشل أبدا في اكتساب أصدقاء جدد.

وكان دوريان يقوم بزيارات دورية لحجرته العلوية كي يراقب تحولات اللوحة، "متعجبا أحيانا، أيّها أكثر رعبا، علامات الخطيئة أم علامات العمر". في البداية، وكلما ازدادت اللوحة قبحا، أصبح دوريان "أكثر وأكثر فقدانا لجماله الخاص، وأكثر أكثر اهتماما بفساد روحه"، حتى أنه بدأ يتهكم على اللوحة. وبمضي الزمن، مع ذلك، فإن الأهواء المختلفة والانحرافات الاجتماعية أصبحت بالنسبة إليه مهربا، بما يعرف بأنّه حقيقة الروح.

***

قابل دوريان الفنان بازيل متأخرا ذات ليلة في الطريق. كان بازيل مسرورا بلقائه؛ لأنه كان يبحث عن دوريان طوال الليل، ليودعه قبل سفره

في رحلة لمدة ستة أشهر إلى باريس، وكان لديه عدّة ساعات قبل أن ينطلق قطاره، فتوجها معًا إلى منزل دوريان. أخبر الرسام دوريان بأنه "كان قلقا"، لأنه "قيل في لندن عنه أكثر الأشياء فظاعة".

تضايق دوريان، وأخبر صديقه أنه لا يهتم بالقيل والقال، ولا يقوم بأي جهد للدفاع عن نفسه. راح بازيل يؤكد لدوريان، مأخوذا بلامبالاة صديقه؛ أنه لم يصدّق كثيرا من الشائعات، التي كانت تردد أنه فاسد وملعون، لأنه يثق أن دوريان شخص طيب، وأن تلك "الخطيئة تسجّل نفسها عبر وجه الإنسان، ولا يمكن إخفاؤها، بينما يبدو دوريان شابا بريئا، كما كان دائما، وبازيل يصدق ما يري بعينيه".

وما أن بدأ الفنان يذكر قائمة أسماء أولئك الذين يقال إن دوريان قد ضلل خطاهم، حتى وبّخه دوريان، قائلا إنّه لا يدري عمّا يتحدث، وطالبه بضرورة الاهتمام بشئونه. ثم راح دوريان يجادله بأنه لا أحد بلا خطيئة، أو بلا شيء مغرٍ، وأن ذلك الفساد ليس شيئا يمكن تعلمه، لكنه يشعر فقط بمسئوليته نحو إبراز حقيقة نفوس البشر. وخلال مناقشتهما، لاحظ بازيل أنه يشعر كما لو أنه لم يكن يعرف دوريان على الإطلاق، وأنه كي يعرفه "ينبغي أن أري روحك"، وهو ما دفع دوريان إلى رد غريب مدفوعا بجنون العظمة، حين قال وهو يضحك لبازيل: "إنك ستري روحي بنفسك الليلة!".

كان بازيل مشوشا، مرعوبًا من كلمات دوريان، فقد كان جلّ ما يريده أن ينفي صديقه الاتهامات المثارة ضدّه، ولم يكن المطلوب أن يعترف دوريان بأن هذا الكم الهائل هو في الحقيقة صادق. وللردّ على كل شكوك بازيل، دعاه دوريان إلى الصعود معه إلى الحجرة العلوية، كي يري "يومياته".

صعدا السلالم معا في منزل دوريان، ثم دخلا إلى الحجرة العلوية، وطلب دوريان من بازيل أن يزيل الستارة عن اللوحة، إذا كان يرغب في أن يري روحه، فظنّ بازيل أن صديقه قد جنّ. وعندما تردد، كشف دوريان عن اللوحة بنفسه، فارتعب الفنان مما رأي. وفي البداية لم يستطع التعرّف على دوريان في ذلك الوجه البشع المرسوم على قماش اللوحة، مبتسما إليه "لقد رفض أن يصدّق أنه ذلك هو الشخص الذي رسمه فعلا"، معتقدا أن ذلك نوع من "سخرية سمجة"، حتى تعرّف على إطار اللوحة، ووجد توقيعه أسفلها.

لاحظ دوريان بلامبالاة ردّ فعل بازيل المرتعب، فتذكّر الأمنية التي تمنّاها منذ البداية في مرسم الفنان، بعد أن أنهي رسم صورته الشخصية. فاضت نفس بازيل بالازدراء، غير متأكد بما ينبغي أن يصدّق ، ومتعجّبا من أنّ دوريان لابد أن شيطانا كان يسكنه على الدوام، وأنه إذا كانت تلك الصورة تعكس روح الرجل حاليا، فإنها "ينبغي أن تكون أسوأ حتى ممّا قد يتخيل أولئك الذي تحدث عنهم!".

حضّ دوريان على ضرورة التوبة، محاولا أن ينقذ روحه.. وعند تلك اللحظة "تصاعد شعور بالكراهية لا يمكن التحكم به على بازيل هالوارد، كما لو أنه كان السبب في الصورة المعروضة على القماش، فهمس بذلك في أذنه بشفتين مكشرتين". وفي نوبة جنون سحب دوريان سكينا، وطعن بها بازيل في العنق، ثم راح يطعنه عدّة مرات، ثم أسقطه أرضا، حتى توقّف عن المقاومة، ومات، وسط بركة من دمائه التي انتشرت عبر المائدة، وغطّت مسافة قدم من كرسيه.

كان دوريان مندهشا من السهولة التي تمّت بها الجريمة، وشعر بتحرر، فظنّ أنّ الرجل "الذي رسمه في صورة شخصية خطرة، يرجع إليها كل

شقائه، قد انتزعت حياته". غادر الحجرة العلوية، معتقدا بأنه قادر على أن يفلت بجلده من هذه الجريمة، طالما أن بازيل كان سيرحل إلى باريس في تلك الليلة، وطالما أنه لم يعرف أحد بزيارته. سيدمّر حقيبة بازيل ومعطفه، ولكن كي يتخلص من الجثة، لابد من استدعاء آلان كامبل.

***

استيقظ دوريان من نوم بلا أحلام، وتذكّر بالتدريج أحداث الليلة الماضية المرعبة.. كتب رسالة لاستدعاء آلان كامبل، وأرسل خادمة كي يسلمها إليه. وحتي يصرف انتباهه عن الجريمة خلال فترة الانتظار، قرأ شعرا في كتاب أهداه إليه شخص يدعي آدريان سنجلتون، يعرف في مجري صداقته باسم آلان كامبل.

التقي الرجلان أولا في حفلة.. كان آلان عالما كيميائيا، لكن ما ربط بينهما أساسا هو حبّ الموسيقي. كان آلان "شابا ماهرا بشكل حاد"، لكن "مهما كان ما تملكه من حسّ قليل لحبّ الشعر هو ما اكتسبه كلية من دوريان". ولم يكن ممكنا الفصل بينهما لفترة من الزمن. ولكن لأسباب غير محددة بدأ آلان ينصرف عن أي حفلات يظهر فيها دوريان، رافضا مجرّد أن يتحدث أو يتفاعل معه بأي شكل.. وقد انسحب آلان من المجتمع كلية تقريبا، مسربلا نفسه في تجاربه.

بدأ دوريان يتذمر من طول فترة الانتظار، لكن آلان وصل أخيرا. تحدّث معه دوريان بمودّة، لكن ضيفه كان هادئا، مقتضبا، متشككا في نوايا مضيفه.. أخبره دوريان، قاطعا المطاردة، بأنه يحتاج إليه كي يتخلص من جسد ميت، نتيجة انتحار.. رفض آلان، ولم يشأ أن يشارك في هذا الأمر بنفسه، أو مع دوريان أساسا. اعترف دوريان على أمل أن ينال مودّته، بأن

ما حدث كان جريمة، وقال إنه يريد من آلان أن يتظاهر فقط بأنه يجري تجربة. بدا واضحا أنّ آلان مصمم على أن يقاوم خطط دوريان.

وسرعان ما تحوّل دوريان على مضض إلى الابتزاز، مظهرًا رسالة يتوعّده بأن يرسلها إذا لم يوافق العالم على مساعدته، فخضع آلان "خوفا من العار الذي يتهدده"، وكتب رسالة إلى مساعده، موضحا فيها نوعية المعدات التي ينبغي أن يحضرها حالا إلى منزل دوريان. وسرعان ما وصلت المعدات، وصرف دوريان الخادم ذلك المساء، كي لا يثير شكوكه.

سحب الرجلان حقيبة الأدوات الثقيلة إلى أعلى السلم. تأكّد دوريان أنه للمرة الأولي كان قد نسي أن يغطي اللوحة قبل انصرافه من الحجرة العلوية، فاندفع ملقيا فوقها ستارة، ولكن قبل أن يغطيها لاحظ عليها حزمة من دمّ قانٍ مقززة للنفس. ومضيا إلى العمل، وانتهيا منه عندما اقتربت الساعة السابعة مساء. كانت جثة بازيل قد أحرقت متحوّلة إلى رماد، وانصرف آلان وهو يقول: "دعنا لا يري أي منّا الآخر مرة أخري إلى الأبد".

* * *

حضر دوريان متأخرا، في ذلك المساء، حفلة نظمتها ليدي ناربروخ، الأرملة الثرية، والعضوة المشهورة البارزة في المجتمع، فتصرّف بشكل طبيعي، بهدوء، ساحرا مضيفيه، مقنّعا بنجاح ضميره المعذب، لكن غير قادر على أن يتناول أي طعام. كان معظم الحاضرين فاترين ومعتوهين، لذلك أحسّ دوريان بسعادة حين وصل لورد هنري. وكالمعتاد، كان دوريان مبتهجا من تعليقات هنري العدوانية الخفيفة غير المتوقعة. ومضي المساء برفق، حتى سئل دوريان كيف أمضي ليلته الماضية.. بدا بوضوح أن

الإجابات المختلفة التي فكّر فيها أو تراجع عنها هي دفاع غير ضروري. أحسّ هنري بسهولة أنّ هناك شيئا ليس على ما يرام مع دوريان. لكن حين حاول أن يجعل دوريان يشاركه في متاعبه، اعتذر الشاب بنفسه، قائلا: إن مزاجه سيىء، وإنه "لابد أن يعود إلى البيت".

بمجرد أن رجع دوريان إلى البيت، وجد أن مقتنيات بازيل، التي تركها في حجرته العلوية، مازال ينبغي أن تدمّر، فرمي بها إلى نيران المدفأة، شاعرا بالغثيان من رائحة القماش والجلد المحترق، وسرعان ما انهزم بواسطة رغبة ملحّة غير محددة، وراح يفحص صندوقا صينيا قاتما مطليّا بتراب الذهب، مأخوذا من أحد الكبائن، وقرّر أن يخرج من المنزل.. رفض سائق المركبة أولا أن يوصله إلى حيث يريد، لكنه سرعان ما تراجع وقبل رشوة دوريان للقيام بتوصيله.

راح دوريان، يتذكر خلال فترة الركوب الطويلة، كلمات لورد هنري منذ أول لقاء بينهما، حين قال: "لا شيء يشفي الروح سوي الحواس، كما أن لا شيء يشفي الحواس سوي الروح". شعر كما لو أن روحه غثي عليها سريعا، وارتاح لفكرة شفائها، هبط من المركبة، وعبر عدّة مبان ، متفحّصا بعصبية ما وراءه، حتى وجد منزلا صغيرا متهدّما، مختفيا في ممر بين مصنعين.

دخل إلى المنزل، الذي تكشّف عن وكر لتناول الأفيون، كان بداخله أفراد جموحين، راضين، مشعّثي الوجوه.. كان من بينهم أدريان بنجلتون، الذي سرعان ما لحق بدوريان عند البار، وحين أزعجته امرأتان، غادر دوريان المكان فورا. وبينما كان ينصرف، نعتته إحدي المرأتين "بالأمير الساحر"، وعندئذٍ انتفض بحار غير معروف واقفا على قدميه، ودفع دوريان إلى الخارج. جذب البحار دوريان من الخلف، حتى جعله يركع

على ركبتيه، رافعا مسدسا في وجهه، وهو يخبره بأنه أخو سيبل فين التي دفعها إلى الانتحار.. كان خطيب أخته يعرف، بلقب "الأمير الساحر". تظاهر دوريان بأنّه لم يسمع من قبل أبدا باسم سيبل فين، وطلب من جيمس أن ينظر إلى وجهه تحت ضوء المصباح. أطاع جيمس، فتأكد له أنّه ارتكب خطأ، لأن سيبل ماتت منذ 18 عاما، وهو ما يجعل حبيبها يقترب الآن من الأربعين، لكن الشخص الواقف أمامه يبدو عمره أقل من العشرين، وخجل جيمس ورجا دوريان أن يسامحه، فوبّخه دوريان على تصرفه، وفرّ هاربا.

تحدّث جيمس ثانية مع المرأتين على البار، فعرف أن عمر دوريان فعلا هو أكبر ممّا يبدو عليه، وعقبت إحدي المرأتين، بقولها بأنه "كان يقترب من الثمانية عشر من عمره، عندما أوصلني الأمير الساحر إلى ما أنا عليه"، عندئذٍ تأكّد لجيمس أنه خدع، فاندفع متهورا وراء دوريان، وعندما استدار وراء الركن، وجد أن الغريب قد اختفي فعلا.

***

كان دوريان واللورد هنري يثرثران مع جلاديس، دوقة مونمارث، خلال حفل في الكونسرفاتوار. وهناك تجمّع عدد من الضيوف بدعوة ممتدة أيضا لضيوف دوريان.. كان الضيوف يناقشون الأسماء، والحب، وبطبيعة الحال اختلافات الجمال.. أظهرت جلاديس نفسها سريعة الخاطر، هادئة، محافظة على قدر من المساواة مع لورد هنري. وحين ذكر هنري أحد أسماء دوريان المستعارة القديمة، وهو الأمير الساحر، تساءلت إذا ما كان دوريان قد وقع فعلا في الحب، فاستاء دوريان من تذكيره بمواجهته الحالية، واعتذر قائلا بأنه ينبغي أن يلتقط بعض زهور الأوركيد من أجل الدوقة.

استغرق دوريان وقتا طويلا أكثر من المعتاد، وبينما كان يتجوّل في المكان، سمعت صرخة مزعجة من الغرفة الأخرى، فاندفع لورد هنري بحثا عن السبب، فوجد دوريان مغشيّا عليه، فنقلوه إلى البيت، وأصرّ هنري على أن يظلّ في الفراش حتى يشفي، لكن دوريان لم يكن يريد أن يكون وحده في المنزل.. رجح كل الضيوف أن انهياره يرجع إلى إجهاده. ومع ذلك، فإن دوريان لم يخبرهم بالسبب الحقيقي لإحباطه، فقد أصابه الإغماء إثر رؤيته جيمس فين، وهو يتجسس من نافذة الكونسرفاتوار.

أمضي دوريان الأيام الثلاثة التالية بداخل البيت "مريضا بخوف رهيب من الموت، ولا مبالاة من الحياة نفسها". وأقنع نفسه أخيرا بأن ذلك الوجه الذي رآه، كان هلوسة سببها ضميره بسبب كبح جريمته لفترة طويلة. وحين خرج دوريان في النهاية، اصطحب لورد هنري لزيارة سير جيوفري كلوستون، أخو الدوقة، في رحلة صيد قصيرة. صوّب جيوفري على أرنب وحشي، فصرخ دوريان بشكل غريزي، وهو يستعجله لإطلاق النار، وسرعان ما سمعت صرختان بعد إطلاق النار "صرخة إصابة الأرنب الوحشي، التي كانت مرعبة"، و"صرخة إنسان يتألم، وهو ما كان أصعب". اعتقد جيوفري أنه قد أصاب أحد المستخدمين.

جري التنبيه بوقف الصيد لهذا اليوم، حتى لا يظهر الضيوف بمظهر القساة، وأخبر لورد هنري جيوفري أن الرجل، الذي أصيب بطلق ناري قد مات. راح هنري ودوريان يثرثران ثانية مع جلاديس بعد ذلك.. استاء جيوفري ممّا فعل، لكن هنري حمّل المستخدم جريرة كل ما حدث، ولم يجد مبررا لإحداث بلبلة. وكان يرغب مع ذلك في معرفة مَنْ ارتكب تلك الجريمة الحقيقية، والتمس دوريان لنفسه العذر حتى يغضّ الطرف عمّا سمع.

استلقي دوريان على أريكة مرتعبا، شاعرا كما لو أن موت الغريب غير المتوقع هو إشارة حتمية إلى أن أجله قد حمّ. كان مشلولا تقريبا من الخوف، قرّر أن يذهب إلى الطبيب، لكن قبل أن يرسل في طلب خادمه فكر في أن يسأل حارس الطرائد عمّا حدث للمقتول، وعمّا إذا كانت له زوجة أو أقارب يعولهم، ثم ليعرض "أي مبلغ من المال يراه ضروريا"، كي يلبي احتياجاتهم. ومع ذلك، عندما وصل حارس الطرائد، أخبر دوريان أنّ الضحيّة لم يكن أحد المستخدمين، بل ولم يتعرف عليه أحد من الحاضرين، فركب دوريان باهتياج إلى منزل المزرعة، حيث حفظت الجثة هناك، فاكتشف أن الرجل الميت هو جيمس فين، فابتهج ابتهاجا تاما، وكانت عيناه مليئتين بالدموع، لأنه عرف أنه قد نجا.

* * *

رجع دوريان إلى لندن بعد عدّة أشهر، وراح يتناقش مع لورد هنري في منزله القديم. بدا أن دوريان، قد قرّر أن يغيّر من أساليبه، فأخبره هنري أن أفضل أسلوب هو ما يمثله فعلا، وليست هناك حاجة للتغيير، لكن دوريان أجاب بأنه قد ارتكب كثيرا من الأفعال الشائنة في حياته، ولذلك فقد بدأ أفعاله الطيبة فعلا من أمس. كان ما دعاه "فعلا طيبا"، هو معاملة "هيتى"، تلك الفلاحة الشابة الجميلة، التي ذكرته بسيبل فين.. كانت قد وقعت في حب دوريان، وبدلا من أن ينتهز الفرصة، ويكسر قلبها كالمعتاد، "قرّر أن يتركها زهرة يانعة، تماما كما وجدها أول مرة".

تهكم عليه هنري، وتساءل عمّا إذا لم يكن متأكدا من أنّ هيتي تطفو الآن كنجم منير في بركة طاحون، مثل أوفيليا.أزعجت تلك الكلمات دوريان؛ لأنّه كان يريد يائسا أن يؤمن بنواياه الطيبة. ثم تحوّلت المحادثة حول مكان

بازيل هالوارد. كان اختفاء الرسام قد مضت عليه ستة أسابيع، ومازال الحديث جاريا في المدينة حول غيابه، وطلاق هنري، وانتحار الآن كامبل.

سأل دوريان هنري، وهو يجلس رابط الجأش إلى البيانو، ماذا يحدث لو أخبره، أنه قتل بازيل، فأجاب هنري بأنه قد يقول بأنه واجه شخصية لم تناسبه.. كان هنري يؤمن أن مثل هذه الجرائم مخصصة للطبقات الدنيا، إلى جانب أنه لا يستطيع أن يتخيّل أنّ بازيل كانت نهايته رومانسية، لأن لوحاته الفنية قد انحدرت بثبات في السنوات التي تبعت تعرّفه إلى دوريان، وقد كان رسمه لدوريان في نهاية المطاف، تحفته الفنية الأخيرة. كان هنري مؤمنا بأن الرسم قد سلب منه منذ زمن طويل، فادعي دوريان أنه نسي كل ما يتعلق به .

قام هنري بإعادة صياغة نص من الإنجيل، متسائلا: "ماذا يفيد الإنسان إذا ربح كل العالم وخسر روحه؟". وحين فوجئ دوريان بتلك العبارة، ضحك هنري وهو يخبره أنه سمع قسّا يوجه هذا السؤال إلى جمع أثناء نزهته عبر الحديقة ذات يوم ممطر، وراح هنري يصف تسليته "من رؤية مشهد هذا الحشد الورع الواقف تحت المطر، ينصت إلى مسيحي غير مألوف". كان قد رغب أن يخبر القس، بأن "للفن روح، لكن الإنسان ليس كذلك".

عارض هنري دوريان، الذي كان يقول: إن "الروح واقع مرعب..يمكن أن تسمم أو تصبح كاملة". ثم أخبر هنري أنه متأكد من هذه الحقيقة، وهو ما ردّ عليه هنري بقوله: "إذًا يجب أن يكون ذلك سرابا. إنّ الأشياء التي يشعر بتأكده منها بشكل مطلق لا تكون حقيقية أبدا". لكن دوريان بدأ يعزف قطعة موسيقية حالمة، أثرت في هنري تأثيرا شديدا،

وحثته على أن يدبج خطبة مسهبة عن الرومانسية، وكيف جعلت حياة دوريان على نحو فاتن. وافق دوريان، لكنه ذكّر هنري أنه تحوّل الآن إلى لون جديد، وأنه لن يسامحه أبدا على تأثيره المفسد، وأثناء خروجه دعاه هنري إلى تناول الغداء معه اليوم، فوافق دوريان على صحبة الرجل الأكبر سنا.

* * *

استمتع دوريان بدفء المساء أثناء التمشية من منزل هنري إلى بيته. ضايقته تمتمة كثير من الناس باسمه خلال مروره بهم، وهو ما كان حدوثه من قبل يسرّه عادة، لكنه بشّر نفسه بالتفكير في هيتي الجميلة والبريئة، و"فعله الطيب" الحالي. كانت فتاة ساذجة بشكل ميئوس منه، لكن ذلك كان سحرها، "كانت تتمتع بكل ما فقد". وصل إلى البيت، ونظر إلى وجهه في مرآة أهداها له هنري منذ وقت طويل، لكن سرعان ما تغلب عليه اشمئزازه فحطّم المرآة على الأرض. حاول أن يركّز على المستقبل منحّيا عن تفكيره شخصيات مثل جيمس فين، الذي يرقد الآن في قبر مجهول، وآلان كامبل، الذي أطلق النار على نفسه دون أن يكشف سره، أو بازيل هالوارد، الذي قتله في لحظة جنون.

حاول أن يسكّن روع نفسه بأن يرجع كل متاعبه إلى الصورة الشخصية التي رسمها بازيل، وهو يتأمل الحياة الجديدة التي بدأها الآن. فكّر في هيتي، وفي محافظته على براءتها كبرهان على طيبته الحديثة، وتساءل عمّا إذا كان فعل الخير، قد حوّل صورته الشخصية إلى الأفضل. صعد إلى الحجرة العلوية، وأغلق الباب بالمفتاح، وأزال الستائر عن الصورة.

انفلت لهاث مرعوب من بين شفتيه، حين لم ير أي تغيير على اللوحة، فمازالت في عينيه نظرة ساخرة، وعلى فمه تجعيدة نفاق ملتوية. عندئذٍ تيقن

دوريان أن طيبته تجاه هيتي، إمّا أنها كانت تمثيلا مزهوّا مدفوعا بالرغبة في تحسين مظهر روحه، أو هي ببساطة نوع مختلف من الأنانية مدفوع بالرغبة في الحصول على حسّ جديد. هكذا يأس دوريان من الهرب من جرائمه الماضية، فرأي اللوحة دليلا من قطعة واحدة كاشفة لجرائمه.. كانت بمثابة ضمير بالنسبة له، ينبغي أن يدمّرها. لاحظ أن السكين التي كانت على المائدة، مازالت ملوثة بدماء بازيل.. تناولها، ونظفها عدّة مرات، وطعن بها الصورة.

استيقظ خدم دوريان على صراخ مرعب. كان شديد الارتفاع لدرجة أنّ سيدين فاضلين كانا يعبران الممر الجانبي سمعاه، فاستدعيا رجل الشرطة، الذي أخبرهما أن ذلك هو محلّ إقامة دوريان جراي، فابتعد الرجلان هازئين، دون أن يتفحصا حقيقة الصراخ. لم يستطع الخدم أن يفتحوا باب الحجرة العلوية المغلق، فقرروا أن يدخلوا من السطح، فوجدوا جثمان رجل مغضّن الوجه ممددا على الأرض، وسكين في صدره، واستطاعوا أن يتعرّفوا فيه على سيّدهم فقط من الخواتم، التي كان يلبسها في أصابعه!

***

ف. سكوت فيتزجيرالد

"ماسة كبيرة بحجم الريتز"

بلغ جون ت. آنجر السادسة عشرة من عمره. كان من المقرر أن يلتحق بمدرسة سانت مايدس، القريبة من بوسطن، التي تعتبر من أغلي المدارس الإعدادية في العالم، ولا يلتحق بها إلاّ أبناء الأسر الشديدة الثراء والغني.

كان جون سليل عائلة ثريّة معروفة جيّدا في هيدس، تلك البلدة الصغيرة التي تقع على الميسسبي. وقد قامت أمّه ليلة سفره بملء حقيبته بالملابس الكتانية، وعند السفر أهدي السيد آنجر إلى ابنه محفظة مليئة بالنقود ، ثم قال له موصّيا:

- تذكر دائما من أنت وفي أي مكان نشأت، حتى لا تقوم بأي عمل يؤذيك.

ثم استطرد بفخر:

- إنك من عائلة آنجر من هيدس.

وتصافح الرجل والفتي، وانصرف جون والدموع تنهمر من عينيه. وبعد عشر دقائق، كان قد ابتعد عن البلدة، فتوقف وألقي نظرة أخيرة على بيته، ثم استدار بتصميم نحو وجهته.

* * *

مرّ العامان الأولان على جون في تلك المدرسة بشكل سار.. كان آباء جميع الأولاد من ملوك المال، وهو ما أتاح له أن يقضي صيف كل عام مدعوّا لأحد المنتجعات المشهورة.

وفي منتصف عامه الثاني في المدرسة، التحق بفصل جون ولد هادئ وسيم يدعي برسي واشنطون.. كان الوافد الجديد حسن الهندام، لطيفا في سلوكه، لكنه ظلّ معزولا عن بقية الأولاد. لم يبد مودة نحوه سوي ولد واحد هو جون آنجر، ولكنه لم يتحدث معه أبدا عن بيته أو أسرته.. لم يكن ثراء برسي يحتاج إلى ذكر، لكن بخلاف عدة استنتاجات خمّنها جون لم يكن يعلم سوي القليل عن صديقه، لذلك حين دعاه إلى قضاء الصيف في بيته "في الغرب"، قبل فورا معتبرا أنّها فرصة لإشباع فضوله، والإجابة عن أي أسئلة قد تخطر على باله.

***

فقط حين كانا يتناولان الغذاء في إحدي عربات القطار، شارك برسي للمرّة الأولي في الحديث، وراحا يتناقشان حول عدد من الأولاد، وفجأة غيّر برسي لهجته وأدلي بتصريح مفاجئ:

- إنّ أبي هو بلا شكّ أغني رجل في العالم.

قال جون بأدب:

- أوه.

لم يستطع أن يفكر في إجابة ردّا على ثقته، بينما راح برسي يكرّر:

- إنه الأغني على الإطلاق.

- ولكن كيف؟ وماذا عن ضريبة الدخل؟

- إنه يدفع ضريبة صغيرة، لكنه لا يدفع أية ضريبة عن دخله الحقيقي على الإطلاق.

عقّب جون ببساطة:

- ينبغي إذًا، أن يكون شديد الثراء.. إنّ ذلك يسعدني، فأنا أحب الناس الأثرياء جدا.

ثم استطرد:

- وكلما كان المرء أكثر ثراء أحببته أكثر. وقد زرت عائلة شنلتزر ميرفي في عيد الفصح الماضي، ورأيت لدي فيفيان شنلتزر أحجار ياقوت كبيرة بحجم بيضة الدجاجة، وأحجار ياقوت أزرق مثل كرات تشع بأضواء بداخلها..

- إنني أحب الجواهر، ولدي مجموعة كبيرة منها، فقد اعتدت أن أجمع الجواهر بدلا من طوابع البريد، لكن بالطبع لا أودّ أن يعرف بالأمر أي فرد من المدرسة.

- والماسات أيضا.. كان لدي عائلة شنلتزر ميرفي ماسات كبيرة بحجم الجوز.

انحني برسي إلى الأمام، وقال بهمس خافت:

- هذا شيء لا يذكر على الإطلاق.. إنّ لدي والدي ماسة أكبر من فندق الريتز كارلتون.

* * *

توقف القطار السريع العابر للقارات، الذي كانا يستقلانه في قرية فيش. كان الجزء الغربي من مونتانا يستلقي بين جبلين.. وعلى بعد مسافة هائلة تحت السماء، تقع قرية فيش، صغيرة وموحشة ومنسية. هبط برسي واشنطون وجون ت. آنجر من القطار في السابعة ودقيقتين، حيث كان في انتظارهما اثنا عشر رجلا، وركبا عربة كانت تنتظرهما يقودها زنجي صامت، سرعان ما انطلقت.. بعد نصف ساعة توقفت العربة، ونادي الزنجي على شخص ما في الظلام، وكجواب على ندائه سلّط عليهم قرصا شعّ سريعا بالضوء، وعندما اقتربا من مصدر الضوء، رأي جون بأنه كان

الضوء الخلفي لسيارة ضخمة، أكبر وأكثر أبّهة من أية سيارة سبق أن رآها من قبل على الإطلاق. كان جسمها من معـدن أغني من النيكل ، وأخفّ من الفضـة ، وكانت محاور العجلات مزيّنة بأشكال خضـراء وصفراء ، لم يجرؤ جون على أن يخمّن ما إذا كانت من الزجاج أو الجواهر. وكان هناك زنجيان يرتديان زيّا مميزا لامعا، يقفان على استعداد إلى جانب السيارة.. دعي برسي صديقه إلى الركوب، بعد أن وضعت حقائبهما على ظهر الليموزين، قائلا:

- آسـف لأننـا نقلنـاك كـل هـذه المسافة في تلك العربة، ولكن لا يفترض بالطبع أن يري ركاب القطار أو أولئك الأشخاص الهابطين في قرية "فيش" هذه السيارة.

كم كان أمر هذه السيارة عجيبا. كان التنجيد منسوجا من ألف وشيجة حريرية دقيقة، وقد طرّزت الجواهر بينها. كما كانت الكنبتان اللتان استرخي عليهما الشابان بنزق، مغطيتين بنسيج مخملي من ألوان متباينة من ريش النعام.

عقب برسي ضاحكا:

- إنها مجرد قطعة مهملة نستعملها في انتقالات محطة السكك الحديدية.

كانا ينحدران في الظلام في اتجاه الهوّة بين الجبلين، حين قال برسي:

- سنصل بعد ساعة ونصف، وأودّ أن أنبهك إلى أن ما ستراه لن يشبه أي شيء رأيته من قبل أبدا.

وسرعان ما وصلا.. بدأت السيارة تدخل الآن بين الجبلين، في حين أصبح الطريق أكثر وعورة.

همس برسي بعدة كلمات إلى السائق، فأضاء نور كشاف جوانب التلال بحزمة أشعة هائلة.

قال برسي:

- هذا طريق صخري، كما تري.. إنّ السيارة العادية تتحوّل إلى حطام في نصف ساعة، لأن هذا الطريق يحتاج إلى دبابة لاجتيازه في حال ما لم تكن تعرف الطريق.. إننا نصعد الجبل الآن.

توقفت السيارة، وتجمع حولها عديد من الأشباح.. كانوا زنوجا أيضا، وسرعان ما بدأوا العمل، فربطوا أربعة أسلاك ضخمة كانت تتدلي من أعلى إلى محاور عجلات السيارة الكبيرة المرصّعة بالجواهر. وعندما أطلقت صيحة، أحسّ جون بالسيارة ترتفع ببطء عن الأرض إلى أعلى، متفادية الصخور البارزة على الجانبين.

كان من الواضح أنهم قد صعدوا إلى أعلى نصل حجري هائل الضخامة، مندفعين بشكل عمودي في الهواء.. وبعد لحظة بدأوا بالهبوط ثانية، وفي النهاية هبطوا بصدمة خفيفة على الأرض المستوية.

قال برسي:

- لقد انتهي أصعب ما في الرحلة، والمسافة الباقية هي خمسة أميال فقط من هنا.

- هل نحن في كندا؟

- كلا، إننا في وسط جبال الروكي في مونتانا، وقد أصبحت الآن في الخمسة الأميال المربعة الوحيدة، التي لم تعاين من قبل أبدا.

- هل نسوها؟

- لقد حاولوا القيام بمعاينتها ثلاث مرات.. في المرة الأولي رشا جدّي دائرة كاملة من إدارة المساحة في الولاية، وفي المرة الثانية استطاع أن يسبب بعض التلاعب في خرائط الولايات المتحدة، وهو ما أبعدهم خمس عشرة سنة. وكانت آخر مرة هي الأكثر صعوبة، فقد دبّر والدي أن تكون بوصلاتهم في أقوي حقل مغناطيسي مصطنع، بعد أن أمر بصنع نظام كامل من أدوات المساحة، التي بها عيب طفيف يسمح لهذه الأرض بألاّ تظهر، ثم انحرف بمجري أحد الأنهار، وأمر ببناء ما كان يبدو للناظر من عل كأنّه قرية على ضفتي النهر، لكنها تبعد في الحقيقة عشرة أميال عن موقعها الفعلى.

- ولكن ألم يعد هناك الآن ما يخشاه؟

- بلي، تظلّ هناك الطائرات، لكن لدينا نصف دستة من مدافع مضادة للطائرات، وقد نتجت بعض الوفيات، ولدينا عددا كبير من الأسري.. لكن تبقي هناك دائما إمكانة ألاّ نستطيع معالجة الأمر.

تخيّل جون بعض الفتيان يسبحون فوقه في الهواء، ينظرون من وراء السحب إلى أسفل، محملقين إليه.. أي فخّ اجتذبهم إلى الهبوط هنا، ليسجنوا بعيدا عن وطنهم؟ أيّة صفقة بائسة تختفي هنا؟ أي لغز ذهبي مرعب؟

***

انتصب أمامهما قصر فاتن عجيب مكتمل عند حدود البحيرة على ضوء النجوم، منحوتا من ألف نافذة صفراء ذات أشكال مستطيلة وثمانية ومثلثة تزهو بأضواء ذهبية. وسرعان ما توقفت السيارة بعد لحظة أمام درج القصر الرخامي المرتفع الواسع، ثم دار بابان كبيران منفتحان في قمة الدرج، فانساب إلى الظلام ضوء كهرماني، وظهرت أم برسي على ضوئه.. اندفع برسي إليها مقبّلا، ثم عرّفها على صديقه آنجر من هيدس.

انتقل آنجر إلى داخل القصر، فبهره ما رأي.. كانت تغطي كل الأسقف والجدران والأرضية أحجار تامة متراصة من الماس، من كل شكل وحجم.

تجوّل الفتيان في متاهة من غرف عجيبة ، ثم تناولا الطعام. كان كل طبق مكونا من طبقتين، من ماس صلب وضعت بينهما زينة من ياقوت.

عرف حين استيقظ بأن النوم قد استولي عليه ، وهو على مائدة العشاء، وقد نقله الخدم إلى حجرته.

* * *

كان آنجر قد خرج لتوه من حمام منعش في صبيحة اليوم التالي، اختتمه بالماء الحلو البارد، ثم ارتدي ثوب حمام فخم، واستلقي على كنبة مغطاة بفراء ثمين، ثم جلس بعد ذلك على كرسي منعش للحواس، حيث حلقت ذقنه وقصّ شعره.

حين قابل آنجر برسي، تنهد واعتذر له للشكّ في كلامه بأن لديهم حجر ماس كبيرًا بحجم فندق الريتز كارلتون، فابتسم برسي، وهو يقول:

– إنه ذلك الجبل.

– أي جبل؟

– الجبل الذي أقيم القصر فوقه.. إنه ليس كبيرا جدا كجبل، لكن باستثناء ما يقرب من خمسين قدما من التربة والحجارة على سطحه، فإنه من الماس الصلب.. حجر ماس واحد بحجم ميل مكعب، دون أي خلل.

* * *

أوجز برسي لجون قصة عائلة واشنطون، أثناء تناول طعام الإفطار. كان والد السيد واشنطون الحالي من ولاية فرجينيا، ينحدر من سلالة

جورج واشنطون الأصلية مباشرة. كان رائدا في الخامسة والعشرين من عمره عند نهاية الحرب الأهلية، يمتلك مزرعة وعملات ذهبية تعادل ألف دولار تقريبا.

قرر الرائد أن يهدي مزرعة فرجينيا لأخيه الأصغر، وأن يذهب إلى الغرب.. اختار أربعة وعشرين رجلا من أكثر رجاله السود إخلاصا، واشتري خمسا وعشرين تذكرة إلى الغرب، بعد أن عقد العزم على الحصول على أراض بأسمائهم ليشرع في تكوين مزرعة كبيرة لتربية الماشية والأغنام.

وقع الرائد على اكتشاف عظيم أثناء وجوده في مونتانا لمدة قاربت الشهر.. كان قد ضلّ طريقه، بينما كان يتجوّل وسط التلال. وحين بدأ يشعر بالجوع بعد يوم أمضاه دون طعام، اضطرّ إلى مطاردة سنجاب، نظرا لأن بندقيته لم تكن معه، فلاحظ أن السنجاب كان يحمل شيئا لامعا في فمه، لكنه أسقطه قبل أن يختفي في جحره، وحين أمسكه بين يديه انتابته دهشة شديدة، فقد كان حجرا كبيرا من ماس شديد النقاء.

اهتدي إلى معسكره في وقت متأخّر من تلك الليلة، وبعد اثنتي عشرة ساعة وبالتعاون مع زنوجه، وصلوا إلى جحر السنجاب، ومن ثم عثروا على منجم ماس ضخم. وحين وضح له حجم اكتشافه، شعر بحيرة شديدة. كان الجبل كله من حجر الماس، ولا شيء آخر فيه سوي الماس الصلب. قام بملء أربعة سروج وامتطي حصانه إلى مدينة سانت بول، حيث توصّل إلى بيع كمية من الأحجار الصغيرة. وفي نيويورك باع بعضا آخر، دون أن يجرؤ على عرض أية جواهر أكبر. وغادر نيويورك في الوقت المناسب تماما، بعد أن تسبب في إثارة هائلة في أوساط تجار المجوهرات، ليس بسبب حجم حجارة الماس التي عرضها فقط، ولكن أيضا بسبب ظهورها في المدينة من مصادر غامضة .

بعد انقضاء أسبوعين، كان قد قدّر أن الماس الموجود في الجبل يعادل تقريبا كل الماس المعروف وجوده في العالم أجمع. ولم يكن ممكنا تقدير قيمته بأية طريقة معروفة، لأنه كان كتلة واحدة من ماس صلب.. كان مأزقا مدهشا ومذهلا!.. هكذا ارتحل الرجل ثانية إلى مناطق مختلفة من العالم، حيث استطاع تسويق بعض من أحجار الماس، وعاد إلى أمريكا عام 1868، بعد فترة سفر تجاوزت العامين بقليل.. وفي ذلك الوقت قدّر فتز نورمان ثروته الخاصة ببليون دولار.

هكذا كانت رحلة حياة فتز نورمان بدءا من عام 1870 حتى وفاته في عام 1900، ملحمة طويلة من الذهب. وقد أرغم في فترة ما على أن يقتل أخاه، الذي عرضت عاداته المؤسفة في السكر سلامتهما للخطر عدّة مرات.

حين آلت الثروة إلى برادوك، ابن فتز نورمان، قرر إغلاق المنجم بعد ثلاث سنوات من موت العجوز، لأنه رأي أن أعماله قد مضت إلى منتهاها بشكل طيب، بعد أن حوّلا كثيرا من ثروتهما إلى أغلي المعادن ، التي أودعوها في كثير من بنوك العالم ، ولأن الماس الذي استخرج منه حتى ذلك الوقت كان يكفي لإعالة جميع أفراد عائلة واشنطون لعدة أجيال في رفاهية لا نظير لها.

خرج جون من المدخل الرخامي الكبير، ونظر بشغف إلى المشهد الذي امتدّ أمامه. بدا كل الوادي هناك، بدءا من جبل الماس إلى الجرف الجرانيتي المنحدر، الذي كان على بعد خمسة أميال.. نزل الدرجات الرخامية، وانطلق سائرا على ممشي أوصله إلى مجموعة من شجيرات الورد على مدخل حديقة واسعة، حيث شاهد فتاة مقبلة باتجاهه، كانت أجمل شخص رآه على الإطلاق.. بدت أصغر من جون، ولا تتجاوز الستة عشر عاما، وسرعان

ما عرّفته بنفسها، بأنها أخت "برسى"، وتدعي "كيسمين". كان قد قابل أختها "جاسمين" في الليلة الماضية. وحين دعته إلى الجلوس على النجيل وافق على الفور.

هنا، للمرة الأولي في حياته، كان يجلس إلى جانب فتاة تجسّد الكمال البشري خير تجسيد.. تبادلا الحديث، فعرف بأنها ستذهب إلى مدرسة الآنسة "بالزج" بنيويورك في الخريف المقبل، وستذهب أختها جاسمين إلى نيوبورت هذا الصيف، حيث تبدأ حياتها الاجتماعية في لندن بعد عام من الآن، حيث ستظهر في بلاط جلالة ملكة إنجلترا.

كم كانت كيسمين بريئة جدا، فهي لا تدخن ولا تشرب ولا تقرأ شيئا عدا الشعر، لأنها كانت تري بأنه يجب على الفتيات أن يستمتعن بصباهن بأسلوب آمن.

صدّق جون على كلماتها، موضّحا بأنه هو أيضا بالمثل.. وسرعان ما اعترفت له بأنها تستلطفه، وهمست بمودة:

– هل ستمضي وقتك مع برسي أثناء وجودك هنا؟ أم ستكون لطيفا معى؟

ثم استطردت، قائلة:

– فكر فقط في أنني أرض نضرة.. لم يقع أي فتي في حبّي طوال حياتي، بل لم يسمح لي أن أقابل أي فتيان على انفراد ما عدا برسي، وقد قطعت كل ذلك الطريق إلى هذه الأيكة على أمل ملاقاتك.

كانت قد تملقته بشكل أشبع زهوه بشكل غير مسبوق.

***

وقف جون مع زميله برسي، مواجهين للسيد برادوك واشنطون، والده، في ضوء الشمس.. كان يبلغ الأربعين من عمره.. سرد بعضا من تاريخ حياته، ثم قال:

– كنت في حياتي مثاليا، لذلك أدخلت الحمامات إلى مساكن الزنوج، وكنت أطلب منهم أن يستحموا يوميا.

ثم استطرد بعد لحظة صمت:

– لكنني سرعان ما أوقفت الحمامات، بعد أن أصيب عدة أفراد منهم بالزكام وماتوا.. بعض الأجناس لا تستخدم الماء إلاّ كشراب.

لم يشعر جون بالراحة إزاء شخصية السيد برادوك واشنطون، وإذا ببرسي يسأل والده فجأة:

– هل هناك كثير من الرجال في الحجز يا أبى؟

– نعم، ولكن لا ينقصهم إلا شخص واحد...

– ذلك المعلم الإيطالي..

– كان خطأً مروّعا، لكن ربّما يكون رجالنا قد أمسكوا به، أو ربما وقع في فخّ بالغابة أو سقط من صخرة عالية. كما أن هناك احتمالاً أن يستطيع الإفلات، وعندئذٍ لن يصدّق أحد قصته. وقد أمرت أربعة وعشرين رجلا بالبحث عنه في المدن القريبة.

توقف.. كانوا قد وصلوا إلى تجويف عريض من الأرض، مغطي بقضبان حديدية. خطا برسي إلى الحافة، ونظر محملقا، وسرعان ما هاجمته ضجة شديدة تنبعث من أسفل. وعندها ضغط السيد برادوك بعصاه على زر وسط النجيل، فأضاء نور تلك المنطقة، وظهر مشهد غريب.. كان هناك تجويف كبير في الأرض يقف على سطحه السفلي حوالي

أربعة وعشرين رجلا يرتدون زي الطيّارين، يتحدثون في الوقت نفسه بصوت مرتفع.

وحين هدأت ضجتهم، أوضح السيد برادوك لهم أن فضولهم هو الذي دفعهم إلى هذا المكان، فأسقطت طائراتهم، ولم يكن هناك من مفرّ من احتجازهم حتى يتمّ التوصّل إلى مخرج يكفل حماية سرّ الأسرة الخطير.. كان برادوك يرفض أي تفاهم معهم، خاصة بعد أن أخرج رجلا منهم في الأسبوع الماضي ليعلم ابنته اللغة الإيطالية، فانتهز الفرصة وهرب.

ارتفعت أصواتهم ثانية هادرة متذمرة، مما حدا بالسيد برادوك إلى الضغط بعصاه ثانية على الزر الموجود وسط النجيل، وسرعان ما اختفي المشهد فورا في الظلام.

***

كان السيد واشنطون والشابان يشغلون وقتهم بصيد الحيوانات في عمق الغابات، أو صيد السمك، أو لعب الجولف، أو السباحة في بحيرة الجبل. لم يرتح جون أبدا للسيد واشنطون، لأنّ كل اهتمامه كان منصرفا إلى تأكيد رأيه وأفكاره دون أي اهتمام بالآخرين.. كما كانت السيدة واشنطون متكتمة منعزلة في كل الأوقات.. كان جلّ اهتمامها منصرفا إلى ابنها برسي، دون أن تمنح أي اهتمام إلى ابنتيها.

***

توطدت أركان العلاقة بين جون وكيسمين، حتى أصبحا يعانيان ويلات الحب.. لم يكن يعرف أن كرة القدم الذهبية الصغيرة، التي أعطاها لها كانت ترقد مع سلسلة البلاتين على صدرها. ومن جانبها لم تكن تدري

أن حجر الياقوت الأزرق الكبير، الذي وقع ذات يوم من تسريحة شعرها قد حفظه جون بحنان في صندوق مجوهراته.

وعندما اقترب شهر أغسطس من نهايته، وبدأ جون يشعر بالأسف، لا لكونه سيضطر قريبا للرجوع إلى المدرسة، ولكن لأنّ الحب كان مستعرا بينه وبين كيسمين ، ولذا قررا أن يتزوجا بأسرع ما يمكن، واتفقا على الهرب والزواج في سبتمبر المقبل. وعلى الرغم من أن كيسمين كانت تفضل أن تتزوج في بلدتها، إلاّ أنها كانت تعي استحالة الحصول على موافقة والدها على ذلك الزواج، لذلك لم يكن أمامها من سبيل إلاّ الهرب مع جون!

* * *

لم يكن جون يصدّق تجربة الحب التي يعيشها، وما يحسّ به من سعادة، فكانت تنتابه بعضا من هواجس رومانسية منذرة، كان يستسلم لها متخيّلا أنّها تضيف عمقا إلى علاقتهما.

وذات مرة فيما بعد ظهيرة أحد الأيام الأخيرة من شهر أغسطس، وبينما كانا يتبادلان القبلات في بستانهما المفضل، فاضت نفسه بما يشعر به، فقال:

- "أحيانا أعتقد أننا لن نتزوّج أبدا، فأنت غنية جدا وجميلة جدا، ولا يمكن لك أن تكوني مثل أي فتاة أخري.. ربّما كان يجب أن أتزوج بابنة بائع خردوات بالجملة في أوماها أو سويكس سيتي، وأن أكون قانعا بنصف المليون الذي تملكه".

- "لقد زارتنا ذات مرة ابنة بائع خردوات بالجملة، كانت صديقة لأختي، تعرفت بها.. لكني أعتقد أنك لم تكن سترضي بها".

- إذًا لقد استقبلتم زوارا آخرين؟

بـدت على كيسـمين أنهـا قد أخـذت على حين غرة، وندمت على ما انفلت من فمها من كلمات، فقالت متعجلة:

- نعم، لقد زارنا البعض.
- لكن ألم يحسّ والدك بالخوف من أن يتكلمن عنكم بالخارج؟
- نعم، كان هذا ممكنا إلى حد بعيد.. لكن لنتحدث عن شيء أكثر سرورًا.

اندهش جون، وكرر من كلماتها كلمتي "أكثر سرورًا"، ثم تساءل:

- ما الشيء غير السار في الأمر؟

اندهش جون حين وجدها تنخرط في بكاء شديد، فساوره شكٌ رهيب، وتحت إلحاحه الشديد اعترفت له بما حدث. لقد استمرت جاسمين تدعو صديقاتها للزيارة، وقد أمضين معنا وقتا ممتعا.. ثم سرعان ما وصلت إلى الجزء الصعب من الاعتراف، حيث لم يكن ممكنا سجنهم مثل الطيارين، لأنهنّ سيكنّ مصدر لوم دائم لهما، وهو ما قام به والدهم في أوائل سبتمبر، حين دبّر أمر قتلهن قبل رحيلهن، وكان الأب قد رتّب تنفيذ الأمر بشكل أسرع مما توقعا، فجنبهما أيّة مشاهد وداع مؤلمة، بعد أن جري تخديرهن أثناء نومهن، وأخبر عائلاتهن بأنهن متن بفعل الحمي القرمزية. وحين تساءل جون عن مبرر استمرارهما في دعوة أخريات، أوضحت كيسمين بأنها لم تدع أحدا أبدا، لكن جاسمين كانت تدعوهن باستمرار، وكن يتمتعن بوقت طيب، وكانت جاسمين تمنحهن دائما أجمل الهدايا قبيل النهاية. وقد ضحي أبي وأمي بأفضل أصدقائهما مثلما فعلنا نحن. وحين كرر استفساره عن مبرر فعل ذلك، أجابت:

- لا يمكننا أن ندع شيئا مقدرا مثل الموت، يقف حجرة عثرة في سبيل استمتاعنا بالحياة التي نعيشها.

وإذا بملاحظة عابرة تغيّر من صورة كل الموقف، بل وألقت بجون في حالة من الرعب، وهو ما دفعه إلى القول:

- هذا هو الأمر إذًا، فكيف سمحت لي بأن أحبك، وتظاهرت بمبادلتي الحب، لدرجة أن تطرق حديثنا إلى الزواج، وأنت تعلمين جيدا أنني لن أخرج من هنا أبدا حيا؟

- كلا..لقد كان ذلك في البداية فقط، فقد كنت هنا، واعتقدت أنه قد يكون أمرا طيبا أن نمضي الأيام الأخيرة معا بشكل سار. ولكن بمضي الوقت وقعت فعلا في غرامك، وإنني أشعر بالأسف فعلا لأنك سوف ..

ثار جون ثورة عارمة، واشتدّ انفعاله. كان رفضه لمثل هذه العلاقة يسيطر على مشاعره تماما، إذ كيف أمكنها أن تقيم علاقة مع جثة؟. وسرعان ما خفت صوتها، ولاذا بالصمت فجأة حين سمعا وقع أقدام على الممر. كان أبوها، الذي اندهش من وجودهما معا في ذلك المكان، وأوضح لكيسمين بأنه كان المفروض أن تكون مع أختها تقرأ أو تلعب الجولف.

وحين انصرف الأب ماضيا في طريقه، فسّرت له معني كلمات أبيها، بأنهما لن يتمكنا من اللقاء بعد الآن، لأنه لن يسمح لها بمقابلته، بل قد يقوم بتسميمه إذا عرف بأنهما عاشقان.

كان جون مازال ثائرا، فأخبرها بأنه خلال ست ساعات سيكون قد عبر تلك الجبال، ولو اضطر إلى حفر ممر خلالها بأظافره، حتى يمضي في طريقه بعيدا إلى الشرق.

وعندما نهضا، اقتربت منه كيسمين واضعة ذراعها على ذراعه، وأخبرته بأنها ستذهب معه هي أيضا، فاعتبرها مجنونة، وراح يرفض عرضها رفضا قاطعا. لكن عندما رأي إصرارها، كان حبّه قد عاوده فوافق.. هذه هي



فتاته، التي ستذهب معه لتشاركه المخاطر.. أحاطها بذراعيه وقبلها قبلة متقدة، إذ على الرغم من كل شيء، فقد كانت تحبه!

***

فجأة بعد منتصف الليل بفترة طويلة ارتعش جسم جون ارتعاشه عنيفة، فاستوي جالسا، وإذا به يسمع ضجّة خارج غرفته، فاندفع مقتحما الباب الخارجي، الذي كان يقود إلى سلم الطابق الثاني. انفتح الباب دون ضجة، وسرعان ما رأي في الممرّ ثلاثة زنوج عراة، وفي أعقابهم رأي السيد برادوك يقف في المصعد المضاء، وهو يدعو الزنوج الثلاثة إلى مرافقته، ثم انغلق باب المصعد عليهم، فأصبح جون وحيدا في الممر مرة أخري.

كان من الجلي أن حدثا رهيبا قد وقع، وسمع أزيزًا في الهواء، فرجع مسرعا إلى غرفته وارتدي ملابسه، وانطلق بحثا عن كيسمين في حجرتها،وهو يخطط لهرب عاجل، فوجد باب حجرتها مفتوحا والنور مضاء، ورآها تقف إلى جوار نافذة غرفتها في حالة إصغاء، وسرعان ما فسّرت له سبب ما يجري، كانت الطائرات هي التي أيقظتها. وربّما كان الإيطالي، الذي فرّ هو السبب في مجيئها، ودعته إلى الصعود معها إلى حديقة السطح لمراقبة الطائرات من هناك. وبينما كانا يصعدان في الظلام، وضع ذراعيه حولها وقبّل فمها.. كان الحبّ قد تمكن منه تماما.

حين وصلا إلى السطح، لاحظا أن الطائرات بدأت تلقي بقنابلها هنا وهناك في أرجاء الوادي الكبير، فتتبعها انفجارات حادة، حتى أصبح الوادي مضاء بالنور بأكمله، وإزاء عنف طلقات المدافع المضادة تحوّلت الطائرات مستهدفة إيّاها، واستطاعت فعلا أن تحيل إحداها إلى رماد.

وسرعان ما اشتد قصف الطائرات، فدمّرت عدة مواقع للمدافع وجناحا للزنوج، ولم يبق أمامها سوي موقع واحد للمدافع ، وهو ما أشعر

جون بخطورة الموقف، فدعي كيسمين إلى الهروب معه، بعيدا عن قذف الطائرات، فوافقت على الانصراف معه، على الرغم من أنهما سيصبحان من الفقراء، مثل أولئك الناس الذين تقرأ عنهم في الروايات، وبأنها ستصبح يتيمة لكنها ستتمتع بحرية كاملة.. لكنها رجته أن يصحبا أختها جاسمين معهما، فوافق على أن تملأ جيوبها بمحتويات صندوق مجوهراتها!

وبعد عشر دقائق قابل جون الفتاتين في الممر المظلم، ونزلوا معا إلى الطابق الرئيسي من القصر، وسرعان ما غادروه منعطفين بشدّة نحو اليسار ويدأوا في صعود ممر ضيّق كان يدور حول جبل الماس. كانت كيسمين تعرف منطقة كثيرة الأشجار في منتصف الطريق، يمكنهم الاختباء فيها لمراقبة الوادي، متحينين الفرصة المناسبة للهرب من خلال ممر سري طويل موجود في أخدود صخري.

* * *

كانت الساعة الثالثة، حين وصلوا إلى منطقتهم الآمنة، فاستسلمت جاسمين فورا للنوم، مستندة إلى جذع شجرة ضخمة، بينما جلس جون وذراعه حول كيسمين، وراحا يراقبان المعركة، وهي تمضي إلى خاتمتها. وسرعان ما أصيب المدفع الأخير، وتعطل عن العمل، وارتفع لسان سريع من الدخان. وراحت الطائرات تحلق على مسافة قريبة من الأرض. كان من الواضح أنها بمجرد أن تتأكد من أنه لم يعد لدي المحاصرين أي وسائل أخري للدفاع عن أنفسهم، ستهبط لتكون نهاية آل واشنطون قد أزفت.

أصبح الوادي هادئا بعد أن توقف إطلاق النار، وبدا القصر مظلما وساكنا، وسرعان ما استسلمت كيسمين للنوم مثل أختها.

سمع جون وقع خطوات على الممر الذي سبق أن عبروه، فانتظر صامتا إلى أن مرّ أولئك الأشخاص، الذي أحدثوا ذلك الوقع المتميّز. وحين ابتعدت الخطوات، ولم تعد مسموعة، اقتفي جون أثرها. وعند منتصف الطريق إلى القمة الزلقة، توقفت الأشجار، ووصل إلى جلمود صخر، فرفع بصره عاليا، فرأي فوق حافته السيد برادوك، ومعه زنجيان يحملان حملا ثقيلا. وسرعان ما أمرهما بأن يرفعا الحمل الموجود بين يديهما، الذي كان عبارة عن ماسة كبيرة الحجم لم ير جون مثلها من قبل أبدا. وبدأ برادوك خطابا بدا خافتا أول الأمر، ثم تدفق سيّالا مندفعا.. كان إمبراطور الماس، ملك الذهب وقديس عصره، يعرض باعتزاز كبير كنزا لم يحلم به الأمراء من قبل قط. كان يحاول أن يمنح الآلهة أعظم ماسة في العالم، حتى ترجع الأمور إلى سيرتها الأولي، كما كانت بالأمس في هذه الساعة، وأن تظلّ كذلك. كان كمن يطلب أن تنفتح السماء فقط وتبتلع هؤلاء الرجال وطائراتهم، ثم تنغلق ثانية.. كان برادوك يتحدث، لكنه عندما قارب نهاية حديثه أصبحت جملة قصيرة، ولم يعد واثقا أو متأكدا مما يقول، بل ومتوترا أيضا.. كان مجنونا جنونا مطبقا!

وبينما كان جون يحملق مفتونا إلى تلك الظاهرة المثيرة التي تحدث. بزغ الفجر، معلنا مولد نهار جديد، وتفشّت موجات حارة من الضباب. وهناك إلى أسفل بدا أن الطائرات قد هبطت على الأرض.

انزلق جون هابطا من فوق جلمود الصخر، عائدا إلى موقعه القديم ثانية، حيث كانت الفتاتان في انتظاره بعد أن استيقظتا، فأخبرهما بأن عليهم أن يهبطوا الجبل فورا.. أمسكت كل منهما بيد من يديه، وعبروا بصمت جذوع الأشجار، مغسولين بالنور والضباب المتصاعد.

اجتازوا مسافة نصف ميل، ودخلوا إلى ممر ضيّق أدّي بهم إلى ارتفاع أرضي، وهناك توقفوا عند أعلى نقطة منه، وتلفتوا حولهم، حتى استقرت عيونهم على سفح الجبل.. كان يسيطر عليهم جميعا شعور بأنّ هناك مأساة قائمة وشيكة الحدوث.

شاهدوا وهم يهبطون، السيد بروادوك ومعه الزنجيان بحملهما الثقيل، الذي مازال يتألق ويومض تحت ضوء الشمس. وفي منتصف الطريق انضمت إليهم الأم ومعها ابنها برسي.. كانت تستند إلى ذراع ابنها، وكان الطيارون قد هبطوا من طائراتهم على المرج الكبير أمام القصر، حاملين بنادقهم، بادئين صعود جبل الماس.

توقفت المجموعة الخماسية عند حافة صخرة، وانحني الزنجيان وجذبا ما ظهر أنه باب مسحور يقع في جانب الجبل، واختفوا جميعا وراء ذلك الباب.

وهنا تساءل جون:

- أهو ممر سري للهرب؟

عندئذٍ صرخت كيسمين، وهي تمسك بذراع جون بعصبية:

- ألا تفهم، إنّ الجبل مكهرب!

وبينما كانت تتكلم سطع الجبل بأكمله مشتعلا بوميض غامض، فرفع جون يديه أمام عينيه ليحمي بصره. كان سطح الجبل بأكمله قد تغيّر فجأة إلى لون أصفر متقد. استمر الوميض لبرهة، ثم تلاشي تاركـا نفاية سـوداء ارتفع منها ببطء دخان أزرق، مضمّخا برائحة ما تبقي من النبات واللحم البشري لأولئك الطيارين.

في اللحظة نفسها ، سمع صوت ارتجاجه هائلة وإذا القصر يتهاوي في الفضاء، منفجرا ،متحوّلا إلى شظايا ملتهبة وهو يسقط متكوّما على نفسه في كومة يتصاعد منها الدخان.

***

بلغ جون ورفيقتاه الصخرة العالية، التي كانت تعيّن حدود مملكة آل واشنطون، وحين التفتوا وراءهم شاهدوا الوادي هادئا وبديعا في ضوء الغسق.. جلسوا يتناولون بعض الطعام، الذي أحضرته جاسمين في سلة.

وبعد تناول الساندويتشات، طلب منهما جون أن يخرجا ما في جعبتهما من مجوهرات، حتى يطمئنوا إلى المستقبل المشرق. وضعت كيسمين يدها في جيبها، وأخرجت قبضتين من الأحجار المتألقة، وضعتها أمامه.. راح يتلمسها بشـــغف ، لكنه سرعان ما انتفض صارخا، وهو يرفع إحداها نحو الشمس، صائحا:

- هذه ليست الماس.

صاحت كيسمين:

- يا إلهى! كم كنت حمقاء!

صرخ جون:

- هذه حجارة من الماس الزائف!

انفجرت كيسمين ضاحكة:

- أعرف، لقد فتحت الدرج الخطأ.. كانت هذه الحجارة تزيّن ثوب إحدي الفتيات اللواتي زرن جاسمين، وقد أقنعتها أن تعطيني إيّاها مقابل حجارة من الماس الحقيقى؛ لأنني لم أكن قد رأيت من قبل غير الأحجار الكريمة فقط.

قال جون، بعد أن تمالك نفسه:

- حسنا، سنضطر إلى العيش في هيدس بلدتي.

- وما الشيء السيئ في هيدس؟

أوضح لهما جون بأن أمر زواجه لن يرضي أبويه، فعرضت جاسمين أن تقوم بالغسيل مقابل إعالتهما، لأنها تحبّ الغسيل، فهي تغسل مناديلها.

وبدأوا تدريجيا يتقبّلون ما حدث، ويتعايشون معه كواقع جديد. وبعد العشاء قاموا بطي الغطاء الذي تناولوا عليه الطعام، وفرشوا بطانياتهم استعدادا لليل.. وتمددت كيسمين فوق بطانيتها، وراحت تتطلع إلى النجوم، قائلة:

- إنني لم ألحظ النجوم أبدًا من قبل.. كنت أفكر بها دائما كأحجار ماس عظيمة يمتلكها شخص آخر.. إنّها الآن تخيفني، وتجعلني أشعر أن كل صباي كان حلما.

قال جون بهدوء:

- لقد كان ذلك ما قيل لي.. إنّ صبا كل امرأة هو مجرد حلم!

وسرعان ما نصحها بأن تقلب ياقة معطفها، لأن الليل بارد.. وهكذا أخلدوا جميعا إلى الراحة في انتظار يوم جديد.

* * *

ف. سكوت فيتزجيرالد

"طريق الخروج الطويل"

كنّا نتحدث حول بعض الجوانب الغريبة في حياة البشر، وتطرّق حديثنا إلى عدد من القلاع القديمة في تورينو، وإلي القفص الحديدي، الذي حبس فيه لويس التاسع عشر كاردينال بالو لمدة ست سنوات، ثم تكلمنا عن رعب الزنزانات وما شابه ذلك من أمور. كنت قد شاهدت عدّة أشياء أحدث عهدا، كانت هناك آبار جافة، عمق كل منها ثلاثون أو أربعون قدما، يرمي فيها الإنسان ببساطة دون أن يكون لديه أي أمل، وفيما بعد عرفت نزعة رهبة الاحتجاز، وهو ما قد يجعل من مجرد مضجع في قطار عربات النوم كابوسا ليليّا حقيقيّا. لقد خلّفت كل تلك الأشياء ذكريات غامضة مستمرة في نفسي، لكن لعلّ ما فاق كل ما سبق، هو هذه القصة التي حكاها طبيب، وبدأت حين كان نوبتجيا، لأنه يبدو أنه ليس هناك ما نصنعه حيال عذاب البشر منذ زمن طويل مضى.

***

كانت هناك شابة تدعي السيدة كنج، سعيدة جدا مع زوجها، كانا موسرين، وبينهما حب عميق، لكنها فجأة راحت في غيبوبة طويلة عند ولادة طفلها الثاني، نشأت عنها حالة فصام (شيزوفرانيا) واضحة، أو شخصية منفصمة. وكانت هذاءاتها ترتفع إلى إعلان الاستقلال، لكن تأثيرها كان ضئيلا على الحالة، لدرجة أنه بينما كانت تسترد عافيتها بدأت تتلاشي .وعند نهاية الشهر العاشر، كانت قد تماثلت للشفاء، ونادرا ما أشير إلى ماجري لها، وأصبحت متحمسة جدا للعودة ثانية إلى العالم.

كانت في الحادية والعشرين فقط من عمرها، أكثر شبابا في أسلوب محاولة استئناف حياتها، محبوبة من العاملين المتخصصين في قسم السلامة العقلية. وعندما أصبحت حالتها أفضل بما فيه الكفاية، بدت هناك فائدة عامة من المغامرة بإمكان أن تقوم برحلة تجريبية مع زوجها، وذهبت ممرضة معها إلى فيلادليفيا لشراء فستان، وعرفت أخري قصتها الأكثر مودة ورومانسية في مكسيكو، وشاهد كل من يزور المستشفي طفليها، وكانت الرحلة إلى شاطئ فرجينيا لمدة خمسة أيام.

كان من المفرح متابعة استعدادها، وملبسها، وحزم الأمتعة الشديد التدقيق، والاندماج في ابتذالاتها المرحة مع تموّجات شعرها، إلى مثل تلك الأشياء.. وكانت قد أكملت استعدادها للرحيل، قبل نصف ساعة من الموعد .وقامت ببعض الزيارات بردائها المميز الأزرق الفاتح وقبعتها، التي بدت كما لو كانت قد ارتدتها بعد الحمام مباشرة. كانت تضطرم بالتوقّع، بوجهها الضعيف المحبوب، وبتلك اللمسة من الحزن المروّع، التي غالبا ما تتخلف بعد مرض.

"إننا لانفعل شيئا" قالت: "إنني أطمح إلى أن أنهض حين أريد لمدّة ثلاثة صباحات متتالية، وأن أظل يقظة إلى وقت متأخر لثلاث ليال متتالية أخري ، وأن أشتري ثوبا للحمام بنفسي، وأن آمر بوجبة". وعندما اقترب الموعد، قررت السيدة كنج أن تنتظر بالقاعة بجوار بئر السلم بدلا من غرفتها، وبينما كانت تعبر الردهات حاملة حقيبة سفرها بثبات، راحت تلوّح للمرضي الآخرين، آسفة لأنهم لم يكونوا هم أيضا ذاهبين إلى إجازة مثلها. تمنّي المراقبون لها كل خير، حتى أن ممرضتين التمستا عذرا، كي تتخلفا وتشاركانها مرحها المعدي.

"يالها من سُمرة جميلة، ستحصلين عليها ياسيدة كنج".

"كوني قوية، وأرسلي كارت بريد".

وفي الوقت الذي غادرت فيه السيدة كنج غرفتها، كانت سيارة زوجها قد اصطدمت بشاحنة، وهو في طريقه من المدينة إليها..أصيب بنزيف داخلي، ولم يكن متوقعا أن يعيش أكثر من عدة ساعات.. وصلت الأخبار إلى المستشفي، حيث طلب عامل التشغيل، في المكتب الزجاجي الملحق بالقاعة، حيث كانت تنتظر السيدة كنج، من رئيسة الممرضات أن تأتي حالا.. هرولت رئيسة الممرضات مذعورة إلى الطبيب، الذي قرر ما يجب ..بأنه طالما أن الزوج مازال حيّا، فمن الأفضل ألا يخبروها بشيء، ولكن طبعا يجب أن تعرف أنه لن يأتي اليوم .

تضايقت السيدة كنج بشدة :

"أفترض أنه من الغباء أن أشعر بالضيق" قالت: "فبعد كل هذه الشهور، ماذا يعني يوم واحد أكثر ؟ لقد قال إنه سيأتي غدا، ألم يقل ذلك ؟".

مرّت المرضة بوقت عصيب، ولكنها رتبت أن تجعل الأمر يمُّر، حتى تعود المريضة إلى غرفتها ثانية، ثم عينوا ممرضة خبيرة جدا، رابطة الجأش، لتحافظ على السيدة كنج بعيدا عن المرضي الآخرين وعن الصحف اليومية، ومع اقتراب اليوم التالي، سيكون قد اتخذ قرارًا في الموضوع بطريقة أو بأخري .

لكن زوجها استمر في التدهور، واستمروا يراوغون.. وقبل ظهر اليوم التالي بقليل، كانت ممرضة تعبر الردهة، عندما قابلت السيدة كنج، مرتدية ملابسها تماما كما كانت بالأمس، حاملة هذه المرة حقيبة سفرها الخاصة :

"سأذهب لمقابلة زوجى" أوضحت للممرضة، "لم يستطع المجيء بالأمس، لكنه سيأتي اليوم في الموعد نفسه ".

سارت الممرضة معها طويلا.. كانت لها حرية التحرك في المبني، وكان صعبا أن توجّه ثانية إلى غرفتها ببساطة، ولم ترد الممرضة أن تخبرها بقصة قد تتناقض مع ما أخبرتها به سلطات المستشفي. وعندما وصلت إلى مقدمة القاعة، أشارت إلى عامل التشغيل، الذي فهم لحسن الحظ.. تفحصت السيدة كنج نفسها في المرآة، وقالت : "أتمني أن أحصل على دستة قبعات كهذه، حتى تذكرني بسعادتي الحالية ".

جاءت رئيسة الممرضات عابسة، بعد ذلك بدقيقة.. تساءلت السيدة كنج : "لن تخبريني أن جورج قد تأخرّ؟".

ـ "أخشي أنه كذلك.. ليس لدينا الكثير لنفعله، ولكن كوني صبورة".
ضحكت السيدة كنج بأسي : "أردته أن يري ملابسي، وهي جديدة تماما".

ـ "لماذا؟ ليست هناك أية تجعدات فيها".

ـ "أتمني أن تدوم حتى الغد.. لا ينبغي أن أكون مكتئبة من الانتظار يوما آخر، حتى أكون سعيدة تماما".

ـ "بالتأكيد، لا".

في تلك الليلة مات زوجها، وانعقد مؤتمر للأطباء صباح اليوم التالي، حول ما يجب فعله .. كانت مخاطرة أن يخبروها، ومخاطرة أن يحجبوا عنها الخبر، حتى تقرر أخيرا أن يقال إن السيد كنج قد استدعي بعيدا، وهو ما سيمحق أملها في لقاء عاجل، وعندما تقبل ذلك يمكنهم أن يخبروها بالحقيقة.

وبينما كان الأطباء يغادرون قاعة الاجتماع، توقف أحدهم وأشار إلى أسفل الردهة باتجاه القاعة الخارجية، حيث كانت السيدة كنج تمشي حاملة حقيبة سفرها.

كتم د. بيري، الذي كان مسئولا عنها بشكل خاص، أنفاسه ثم قال:

" إن هذا مؤلم "، وأضاف: "أعتقد، ربما من الأفضل أن أخبرها ، ثم قال : ليست هناك فائدة من قول إنه بعيد، بينما اعتادت أن يكلمها عادة مرتين أسبوعيا. وإذا قلنا إنه مريض، فسوف ترغب في أن تزوره، هل هناك أي شخص يرغب في أن يمارس هذه المهنة؟".

* * *

منذ فترة ما بعد الظهيرة تلك، ذهب أحد أطباء المؤتمر في إجازة لمدة أسبوعين، وتوقف عند عودته في الردهة نفسها ، وفي الساعة نفسها ، على مرأي موكب صغير قادم بثبات باتجاهه، كان موكب السيدة كنج حاملة حقيبة سفرها، مرتدية حلتها الزرقاء الفاتحة، بقبعتها الربيعية :

"صباح الخير، يا دكتور" قالت: "سأقابل زوجي وسوف نذهب إلى شاطئ فيرجينيا.. سأذهب إلى القاعة، لأنني لا أريده أن يظلّ منتظرا". تطلع إلى وجهها، الذي كان رائقا سعيدا كالأطفال.. أشارت الممرضة إليه أن هذا هو ما أمرت به، لذلك انحني برقة، وتحدث حول الطقس اللطيف .

قالت السيدة كنج:"إنه يوم جميل ولكن حتى لو كانت تمطر فإنه سيظل يوما جميلا من أجلي".

تابعها الطبيب ببصره حائرا، متضايقا، وهو يفكر لماذا يدعونها تستمر ؟ أي تحسّن يمكن أن يحققه ذلك ؟

وعندما قابل د.بيري، طرح عليه السؤال : "حاولنا أن نخبرها " قال د.بيري: "ضحكت، وقالت إننا نحاول أن نري إذا كانت ما تزال مريضة.. كان موته أمرا لا مجال للتفكير فيه بالنسبة لها، أجل يمكنك أن تستخدم تعبير "لا مجال للتفكير فيه".. كان ذلك هو شعورها تماما".


HOSPITAL

ـ "لكن لا يمكن أن يستمر الأمر هكذا فقط".

ـ قال د.بيري: "نظريا، لا" ثم أضاف : "منذ عدة أيام، حينما حزمت أمتعتها كالمعتاد، حاولت الممرضة أن تمنعها من الذهاب. ومن الخارج، من القاعة، أمكنني أن أري وجهها وهو يكاد يتشظي.. للمرة الأولي، أنبهك .. كانت عضلاتها مشدودة، عيناها زجاجيتين، وصوتها كان رفيعا حادا، حين وصفت الممرضة بأدب شديد بأنها كاذبة. كان ذلك يوما ملموسا.. تخيّل نفسك هناك، وفكر لوهلة سيكون عليك أن تختار بين أمرين: إمّا أن تكون لدينا مريضة قابلة للتحكم أو حالة كبح لا نعرف مضاعفاتها.. هكذا توقفت، وأمرت الممرضة بأن تأخذها إلى حجرة الاستقبال".

انفعل الطبيب، لأن الموكب الذي مرّ منذ قليل، ظهر ثانية فأومأ برأسه باتجاهه، بينما توقفت السيدة كنج، وحدثت د. بيري قائلة:

"لقد تأخر زوجي .. تضايقت بطبيعة الحال، لكنهم أخبروني بأنه سيأتي غدًا.. لكن بعد انتظار طويل كهذا، لا يجب أن أهتم بزيادة يوم آخر.. ألا توافقني الرأي، يا دكتور؟".

ـ "إني أوافق بالتأكيد، يا سيدة كنج" .

نزعت قبعتها قائلة:

"يجب أن أضع جانبا هذه الملابس، فأنا أريدها أنيقة غدا، كما هي اليوم "، واقتربت ببصرها من القبعة، وأردفت "إن هناك ذرة غبار عليها، لكنني لا أظن أنني أستطيع التخلص منها.. ربما لن يلاحظ".

ـ "أنا متأكد أنه لن يلاحظ".

ـ "حقيقة، لا أمانع أن أنتظر يوما آخر، سيمر الوقت سريعا، ويأتي الغروب قبل أن أعرف، أليس كذلك؟".

تساءل الطبيب، بعد أن ابتعدت :

ـ "لكن مازال هناك الطفلان؟".

ـ "لا أظن أن للطفلين دخلاً بالموضوع، لأنها ربطت بإحكام بين رحلة هبوطها إلى أسفل مع فكرة أنها تحسنت.. إذا نزعناها منها، فستمضي مباشرة نحو القاع، لتبدأ من جديد".

ـ "أيمكن ذلك؟".

ـ قال د.بيري: "لا توجد تكهنات" .. إنني أوضح ببساطة، لماذا سمح لها بالذهاب إلى القاعة هذا الصباح؟".

ـ "لكن هناك صباح الغد، والصباح التالى".

ـ قال د.بيري: "لأنه يوجد دائما هناك احتمال .. أن يكون هناك ذات يوم".

* * *

هنا أنهي الطبيب قصته، أو على الأصح بترها. وحينما ضغطنا عليه ليخبرنا عمّا حدث، احتج بأن البقية ليست ذروة، ذلك لأن التعاطف هو ما يبقي في نهاية المطاف، وفي النهاية تقبّل العاملون بقسم السلامة العقلية الحقيقة .

ـ "لكن هل ما تزال تذهب إلى لقاء زوجها ؟".

ـ "آه، نعم. إنه دائما الشيء نفسه ، لكن بقية المرضي، ماعدا الجديد منهم، كانوا يرفعون بصرهم بصعوبة أثناء عبورها القاعة.. وقد نظمت الممرضــات أن يقمن بإحلال قبعة جديدة لها كل عام، لكنها ما تزال

ترتدي الفستان نفسه. إنها دائما متضايقة قليلا، لكنها تبذل أقصي ما تستطيع، وبعذوبة أيضا.. إنها ليست حياة غير سعيدة، على قدر ما نعرف، لكنها ضربت مثلا يحتذي على الهدوء للمرضي الآخرين ..

من أجل الإله، دعونا نتكلم في موضوع آخر، دعونا نرجع إلى حكاية الزنازين".

* * *

سلمي لاجرلوف

"خارجان على القانون"

هرب الفلاح، الذي قتل الراهب إلى الغابات وأصبح هناك خارجا على القانون. وجد أمامه هناك في البريّة خارجا آخر على القانون، صياد سمك من الجزر الأقصى بعدا، والذي اتهم بسرقة شبكة سمكة رنجة. التقيا معا، عاشا في كهف، نصبا الفخاخ، شحذا السهام، خَبَزا خبزًا على صخرة جرانيتية، وحرس كل منهما حياة الآخر. لم يغادر الفلاح الغابات أبدا، لكن صياد السمك، الذي لم يكن متهما في جريمة مقيتة كتلك، كان أحيانا يحمل طردا على كتفيه، ويتحايل على الرجال هناك، حتى يجري مبادلة ديكة سوداء مقابل أرانب وحشية ذات آذان طويلة، غزالة ذات أطراف حمراء، لبن وزبدة، رءوس أسهم وملابس، وهو ما أبقي الخارجين على القانون أحياء.

كان الكهف حيث عاشا محفورا على جانب تل. تخفي مدخله أحجارا عريضة وشجيرات ذات ثمار شائكة.. كما انتصبت فوق الكهف شجرة صنوبر نامية. وكانت فتحة الكهف بين جذورها، حيث يختفي الدخان المتصاعد عبر الفروع الرفيعة للشجرة ويتلاشي في الفضاء.. وقد اعتاد الرجلان أن يذهبا ويعودا إلى مكان سكنهما خائضين في ينبوع الجبل، الذي يجري إلى أسفل التل. لم يكن ممكنا لأحد أن يقتفي آثارهما تحت الماء الرقراق العذب.

في البداية تمت مطاردتهما مثل وحشين مفترسين. تجمّع الفلاحون كما لو كانوا يطاردون ذئبًا . كانت الغابة محاطة برجال بأقواس وأسهم. ومضي

عبرها رجال بحراب، لم يتركوا أي صدع مظلم أو أي دغل كثيف دون أن يستكشفوه. بينما تعالت عبر الغابة ضوضاء إثارة الطرائد من مكامنها، استقر الخارجان على القانون في حفرتها المظلمة، ينصتان مبهوري الأنفاس، ويلهثان رعبا. قام صياد السمك بنوبة حراسة طوال اليوم بأكمله.. لكن ذلك، الذي قتل الكاهن اندفع خارجا من الفتحة تحت ضغط خوف لا يحتمل، حيث أمكنه أن يري أعداءه.. شوهد وطورد، لكن بدا له أنّ ذلك أفضل سبع مرات من البقاء ساكنا عاجزا عديم النشاط.

فرّ من مطارديه، انزلق أسفل جرف، وانحدر عبر جداول مائية، وتسلق جوانب جبل عمودية. استدعي كل قوته الكامنة وبراعته لمواجهة إثارة الخطر.. أصبح جسده مرنا كياي صلب، لم تخط قدمه خطوة واحدة زائفة، لم تفقد يده أبدا قبضتها. وكانت العين والأذن أحدّ من المعتاد. فهم ما تهمس به أوراق الشجر وما تحذّر منه الصخور. عندما تسلق أعلي جرف، استدار باتجاه مطارديه، مرسلا إليهم هزؤات بإيقاع متقطع. حينما أزّت رشقات سهام بجواره، أمسك بها سريعا كما الضوء، ورشقها لأسفل على أعدائه.. وبينما كان يشق طريقه عنوة عبر الأفرع المتشابكة، غني شيئًا من خلاله أغنية نصر.

امتدت سلسلة الجبل الأجرد عبر الغابة، وعلي ذروتها وقفت شجرة سنوب شامخة متوحّدة.. كان جذعها البني المائل للحمرة عاريا، لكن بين أغصان قمتها تأرجح عش نسر. كان الهارب الآن جريئا بتهور لدرجة أنّه تسلق إلى هناك، بينما مطاردوه يبحثون عنه على منحدرات الغابة.. جلس هناك يلوي أعناق النسور الصغيرة، بينما مرّ المطاردون بعيدا إلى أسفل.. انقض أنثي وذكر النسر على المتطفل، متشوّفين إلى الانتقام.. رفرفا أمام وجهه، وصوّبا مخالبهما إلى عينيه. ضرباه بأجنحتهما، ومزقا بمخالبهما

الدامية آثار الضرب على جلده الملوّح. ضاحكا، تصارع معهما، ثم انتصب في العشّ المهتز، ولوّح أمامهما بسكينه الحادّة ونسي في غمرة سروره الهزلي خطر مطارديه؛ حين وجد وقتا كي يبحث عنهم، كانوا قد مضوا إلى جزء آخر من الغابة. لم يخطر لأحد أن يبحث عن الطريدة على سلسلة الجبل الأجرد.. لم يرفع أحد عينيه إلى السحب ليراه، وهو يمارس حيلا طفولية وأعمالا مسرنمة بينما حياته في أعظم خطر.

ارتعش الرجل حين وجد أنه نجا.. تشبث بجذع شجرة صنوبر بيدين مهتزتين بقوّة وطيش، وقاس الارتفاع الذي تسلق إليه، ثم ناح خائفا من السقوط، خائفا من أن يري، خائفا من كل شيء، وسرعان ما انزلق إلى أسفل الجذع واستقر على الأرض، حيث أخفي نفسه تحت أغصان شجرة الصنوبر الوارفة، وغاص أسفل الطحالب، ضعيفا دون قوة، حتى ليستطيع فرد واحد أن يأسره.

***

تورد، كان اسم صياد السمك.. كان شابا، لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، لكنه قوي وجسور.. وكان قد عاش فعلا في الغابات.

كان اسم الفلاح برج، ولقب أسرة ريز.. كان أطول وأقوي رجل في المقاطعة، بالإضافة إلى وسامته ودقّة بنيانه. كان عريض المنكبين، نحيف الخصر. كانت يداه حسنتي التكوين، كما لو أنه لم يقم من قبل أبدا بأي عمل شاق.. كان شعره بنيا، وبشرته جميلة . وبعد قضاء فترة في الغابات، اكتسب أكثر المظاهر رعبا. صارت عيناه حادتين، ونما حاجباه بكثافة الخضرة، وبقيت العضلات التي ربطتهما كإصبع مكتنز ينتصب أعلي أنفه.. وقد ظهر الآن بوضوح أكثر من أي وقت مضي، كيف أن الجزء الأعلى من جبينه الرياضي قد تسلط إلى أسفل، وأغلقت شفتاه بثبات أكثر من الكبار، كان

وجهه كله نحيفا. نمت فراغات الصدغين بشكل عميق جدا ، وكان فكه القوي أكثر بروزا . كان جسمه حسنا ، أقلّ امتلاء إلى الخارج ، ولكن عضلاته كانت صلبة كالفولاذ. تحوّل شعره إلى الرمادي فجأة.

لم يملّ تورد الفتي أبدا من التطلع إلى هذا الرجل.. لم يكن قد رأي من قبل أبدا شخصا بهذا الجمال والقوة. وفي خياله، كان يقف سامقا كالغابة، قويّا كالبحر.. خدمه كسيّد ويجلّه كإله.. جري الأمر بأن يحمل تورد حراب الصيد، ويسحب الطريدة إلى البيت، ويفتّش عن الماء، ويشعل النار.. قبل برج ريز كل خدماته، ولكنه تقريبا لم يمنحه أبدا كلمة ودودة. ازدراه، لأنه كان لصا.

لم يعش الخارجان على القانون حياة السرقة أو قطع الطريق، بل أعانا نفسيهما بصيد الحيوان وصيد السمك. لو لم يقتل برج ريز رجلا مقدسا، لم يكن الفلاحون ليعجّلوا بالقبض عليه ومحاكمته ولتركوه يعيش في الجبال بسلام.. كانوا يخشون من كارثة كبيرة للمقاطعة، لأن من رفع يده على خادم الله كان ما زال غير معاقب. حين هبط تورد إلى الوادي بالطرائد، عرضوا عليه ثروة والعفو عن جريمته الخاصة إذا أرشدهم إلى الطريق إلى مخبأ برج ريز، حتى يمكنهم أن يقبضوا عليه وهو نائم.. لكن الفتي رفض دائما، وإذا حاول أي فرد أن يتسلل وراءه إلى الغابة، فإنه كان يضلله ببراعة حتى يستسلم.

ذات مرة سأله برج ريز إذا كان الفلاحون لم يحاولوا أن يغرونه على أن يخونه، وحين سمع ما عرضوه كمكافأة، قال ساخرًا إن تورد كان غبيًا في عدم قبوله لذلك العرض.

عندئذٍ نظر إليه تورد نظرة خاطفة، لم ير برج مثلها من قبل أبدا.. قالت النظرة الخاطفة: "أنت سيدي، أنت السيد المختار.. أعرف أنك قد تثور ضدي وتظلمني كما تشاء، لكنني مخلص غير مخاتل".

منح برج ريز، بعد ذلك، للفتي مزيدا من الاهتمام، ولاحظ كم كان جسورا لحظة الفعل خجولا عند الكلام.. ليس لديه خوف من الموت. وحينها تجمّدت البرك أولا، أو حين أصبحت المستنقعات أكثر خطورة في الربيع، وحينما اختبأت البحيرات تحت نجيل مزهر ثري فإنه باختياره، شقّ طريقه بينها.. بدا أنه يشعر بالحاجة إلى تعريض نفسه للخطر كتعويض لعواصف ومخاوف المحيط، اللتين لم يكن قد قبلهما بعد. كان يخاف ليلا من الغابات، بل وحتى في منتصف النهار كانت تخيفه الأجمات المظلمة أو الجذور العريضة المتماسكة لشجرة صنوبر.. ولكن حين سأله برج ريز عنها، كان خجولا جدًّا من أن يجيب.

لم ينم تورد قرب النار، بل بعيدًا في كهف على فراش ناعم دافئ صنع من طحالب ومن جلود، ولكن كلّ ليلة حين يسقط برج نائما، كان يزحف خارجا من المدخل ويستقر هناك على صخرة.. اكتشف برج ذلك، ورغم أنه فهم السبب جيدا، إلاّ إنه سأل عمّا يعنيه. لم يكن تورد ليشرح، وحتى يهرب من أي أسئلة أخري، لم يمكث على الباب لليلتين، لكنه عاد بعد ذلك إلى مركزه.

حين دوّم الجليد المتحرّك، ذات ليلة بين قمم الغابة، واتجه إلى أسمك أجمة شجيرات نامية تحت الشجرة الكبيرة، شقّت كتل رقيقة من جليد متساقط طريقها إلى كوخ الخارجين على القانون. كان تورد، الذي رقد قرب المدخل، مغطي بذوب الجليد حين استيقظ في الصباح.. بعد عدّة أيام سقط مريضا. صفرت رئتاه وحين تمدد ليلتقط الهواء، شعر بألم موجع. ظلّ يقاوم إلى أن خارت قواه، ولكن حين انحني ذات ليلة لينفخ في النار، ترنّح وسقط أرضا.

جـاء إليـه برج وأمـره أن يذهب إلى فراشـه .. تأوّه تـورد بألـم ولم يستطع أن يرفع نفسه. حينئذٍ غرز برج ذراعيه تحته وحمله إلى هناك، ولكنه شعر كما لو كان يمسك ثعبانا قذرا، وكان لديه مذاق مرّ في الفم كما لو أنه قد أكل لحم حصان غير مقدّس، فقد كان بغيضا جدا بالنسبة إليه أن يلمس لصا بائسا.

غطـاه بفروة جلد الدب الكبيرة الخاصة به وأعطاه ماء، ولم يستطع أن يفعـل أكـثر من ذلـك. لـم يكـن مرضه خطـيرا.. لذلك سرعـان ما تحسنت حالة تورد ثانية، ولكن بعد أن حدث تقارب أكثر بينهما بسبب اضطرار برج إلى أن يقوم بأعماله وأن يصبح خادمه. وجرؤ تورد في المساء، على أن يتحدث إليه، حين جلس في الكهف قاطعا قصبات سهم، حين قال:

"أنت من جنس طيب يا برج.. إن أقاربك هم الأغنى في الوادي، كما خدم أسلافك مع الملوك وحاربوا في قلاعهم".

قال برج ريز:

"لقد حاربوا غالبا مع جماعات من الثائرين، وسببوا للملوك إصابات عظيمة".

استطرد الفتي، يقول:

"أسلافك أقاموا ولائم عظيمة في أعياد الميلاد، وهكذا فعلت حين كنت في بيتك.. مئات من الرجال والنساء وجدوا مكانا للجلوس في بيتك الواسع، الذي بني فعلا قبل أن يقوم سانت أولاف بعماده الأول هنا في فيكن.. كم امتلكت من أوعية فضية وآنية شراب عظيمة تلك التي انتقلت من رجل إلى رجل ممتلئة بشراب متخمّر":

مرة أخري نظر برج ريز إلى الفتي، الذي اضطجع ممددا ساقيه خارج الفراش، وقد ارتاحت رأسه بين يديه، اللتين أعادتا في الوقت نفسه ترتيب الكتل المتنافرة من شعره، والتي كان يمكن أن تغطي عينيه.. ابتسم برج للصور التي استحضرها في ذهنه: عن البيت المزيّن، عن الأوعية الفضية، عن الضيوف في الاحتفال عظيم، وعلي برج ريز جالسًا على مقعد شرف في قائمة أسلافه. فكر الفلاح أنه لم ينظر إليه أحد من قبل أبدا بمثل هاتين العينين المعجبتين المضيئتين، أو ظنّه شخصا معجزا جدا، مكسوّا بملابس العيد، تماما كما فكر ذلك الفتي ذو الملبس الجلدي المهلهل.

كان كلاهما ممسوسا ومغضبا مغتاظا.. ذلك اللص البائس لم يكن لديه الحقّ أبدا في أن يعجب به.

تساءل برج:

"ألم تكن هناك ولائم في بيتك؟"

ضحك تورد، وقال:

"إنني أسكن هناك بعيدا على الصخور مع أب وأم! لكن مع أب غريق وأم ساحرة، لن يأتي إلينا أحد أبدا".

تساءل برج:

"هل أمك ساحرة؟".

لم يبد على تورد أي ضيق ، وهو يجيب:

"نعم، هي كذلك.. كانت تخرج في الطقس العاصف راكبة عجل بحر لتقابل السفن التي أغرقتها الأمواج، وكان لها كل أولئك الذين حملوا على متنها".

سأل برج:

"ماذا تفعل بهم؟".

"أوه، تحتاج الساحرة دائما إلى الجثث.. إنها تستخرج منها مراهم، أو ربّما تأكلها. كانت في الليالي المقمرة، تجلس وسط الأمواج المتكسرة على الشاطئ، حيث يغمرها رذاذ عنيف أكثر بياضا.. يقولون إنها تجلس وتبحث عن أصابع وعيون أطفال السفن الغرقى".

قال برج:

"إن هذا مؤلم".

أجاب الفتي بتأكيد لامتناهٍ:

"قد يكون ذلك مؤلما للآخرين، لكن ليس للساحرات.. يجب أن يفعلن ذلك".

عندئذٍ وجد ريز أنه قد اكتشف طريقة جديدة للنظر إلى العالم والأشياء، فسأل بحدة:

"هل يجب على اللصوص أن يسرقوا، كما يجب على الساحرات أن يستخدمن السحر؟".

أجاب الفتي:

"نعم، طبعا. على كل فرد أن يفعل ما قدّر له أن يفعله".

ثم أضاف بابتسامة حذرة:

"هناك أيضا لصوص لم يسرقوا أبدا"!

ألحّ برج:

"أوْضِح ما تعنيه".

استمر الفتي فخورا بابتسامته الغامضة، فخورا بكونه لغزا غير مفهوم، وقال:

"يعتبر ذلك مثل الحديث عن طيور لا تطير، والحديث عن لصوص لا تسرق"!

تظاهر برج ريز بأن يكون غبيا، حتى يكتشف ما أراد، فعلّق: "لا يمكن أن يسمي شخص لصا دون أن يسرق"!

قال الفتي، ضاغطا شفتيه معا ليمنع الكلمات:

"لا، لكن إذا كان لفرد أب هو الذي سرق"!

ثم استطرد بعد وهلة:

"يرث الفرد المال والأرض".

عقّب برج ريز:

"لكنه لا يحمل مسمّي لص إذا لم يكن هو نفسه يستحقه"!

ضحك تورد بهدوء، وهو يقول:

"لكن إذا كان لذلك الشخص أمّ رجته ودعته إلى أن يحمل عبء جريمة الأب بنفسه.. وماذا لو احتال مثل ذلك الشخص على الجلاد وهرب إلى الغابات؟ وماذا لو تحوّل شخص إلى خارج على القانون، بسبب شبكة صيد لم يرها من قبل أبدا؟!"

ضرب برج ريز المائدة الحجرية بقبضة يده المغلقة.. كان غاضبا. لقد بدّد هذا الفتي الشاب النقي كل حياته، ولن يمكنه بعد ذلك أن يفوز أبدا، بحبّ أو بثروة أو بتقدير.. كان كل ما بقي له مجرّد مكافح بائس من أجل طعام وملابس. جعله الغبي، برج ريز، محتقرا دائما، وهو الوحيد الذي كان بريئا.. وبّخه بكلمات حادة، لم يعد تورد في تلك اللحظة خائفا، كطفل من أمه، التي تعنّفه لأن بردا أصابه من الخوض في جداول الربيع.

استقرت بحيرة مظلمة على واحد من جبال الغابة الواسعة. كانت مربّعة بشواطئ ممتدة وأركان حادة، كما لو أنها نحتت بيد إنسان. أحيطت ثلاثة جوانب منها بمنحدرات هاجعة، تعلقت بها جذور أشجار صنوبر ضخمة

كأذرع الرجال.. وبزغت جذور أشجار صنوبر من الماء عارية معقوفة وملتوية بغرابة الواحد حول الآخر، إلى أسفل بجوار البركة، حيث تآكلت الأرض بانتظام. بدت تلك الجذور كعدد لانهائي من ثعابين أرادت جميعا أن تزحف خارج البركة في وقت واحد، ولكن سرعان ما تعقد كل منها مع الآخر، وكبحت.. أو كانت مثل كمية كبيرة من هياكل عظمية سوداء من غرقي عمالقة، أرادت البركة أن تلفظهم على الأرض، فالتفت الأذرع والسيقان حول بعضها البعض، وحفرت الأصابع الطويلة عميقا في المنحدر ذاته لتتماسك، كدعامات قوية كوّنت مداخل صلبت أشجارا بدائية.

لقد حدث مع ذلك، أن الأيدي الحديدية، والأصابع التي كما الفولاذ، التي تصلب أشجار الصنوبر نفسها، سرعان ما استبعدت، وولدت شجرة صنوبر بواسطة ريح شمالية جبارة من قمة المنحدر إلى البركة بأسفل.. لقد حفرت عميقا لأسفل نحو القاع الطيني بقمتها ووقفت الآن هناك. وكان لأصغر سمكة مكان جيّد تلوذ به بين فروعها، لكن الجذور بزغت أعلي الماء كأذرع وحش عديدة، توزّعت لتجعل البركة مؤلمة ومرعبة.

على جانب البحيرة الرابع، غاص منحدر لأسفل.. هناك حمل المجري الرغوي الصغير مياهه بعيدا. وقبل أن يجد هذا المجري طريقه الوحيد الممكن، حاول التصريف بأن يتسرب من بين الأحجار والروابي، فصنع بذلك عالما صغيرا من الجزر.. بعضها ليست أكبر من أكمات صغيرة، وأخريات مغطاة بالأشجار.

هنا حيث لا تمنع المنحدرات الدائرية كلّ أشعة الشمس، تتفتح الأشجار ذات الأوراق. كما وقفت أشجار جار الماء الرمادية الخضراء وأشجار صفصاف ناعمة الأوراق عطشي ، ونمت شجرة بتولا، مثلما تفعل في كل مكان. هناك حاولت غابات الصنوبر أن تحتشد، بينما تحدّ أشجار

الكرز البري وأشجار رماد الجبل غابة الكلأ، مالئتين إيّاها بشذاهما ومزينتين لها بجمالهما.

هنا في المخرج توجد أعواد الغاب عالية كما الإنسان، لتجعل ضوء الشمس ينكسر أخضر على الماء، عندما يسقط على مستنقع مكسو بالطحالب في الغابة الحقيقية.. هناك أماكن، بين أعواد الغاب، مفتوحة، برك مستديرة حيث تطفو زنابق مائية.. لاتبالي العيدان الطويلة بأولئك الجميلات الحساسات، اللاتي تغلق بعدم رضا بتلاتها البيضاء وسدّاتها الصفراء بشدة، وأغلفتها التي كما الجلد، حالما يحدث أن تظهر الشمس نفسها.

ذات يوم مشرق، جاء الخارجان على القانون إلى هذه البحيرة لصيد السمك، خاضا إلى حجرين كبيرين في منتصف غابة الغاب، وجلسا هناك ورميا طعما لأسماك البكريل الكبيرة الخضراء، التي ترقد وتنام قرب سطح الماء.

أصبح هذان الرجلان، اللذان كانا دائما يتجوّلان في الغابات والجبال، يعيشان تحت رحمة قانون الطبيعة، تماما مثل النبات والحيوان. ينشرح قلباهما، حين تشرق الشمس. لكن في المساء، حالما تختفي الشمس، يصبحا صامتين، ويبدو لهما الليل أكثر عظمة وأكثر قوّة من النهار، حين يجعلهما قلقين وعاجزين. والآن.. فإن الضوء الآخر، الذي انحدر بين نبات الأسل ولوّن الماء بلون بني وأخضر غامق مشبع بالذهب، أثر في مزاجهما حتى أصبحا مستعدين لأي معجزة، وتوقف كل استشراف.

كانت عيدان الغاب المتجمعة بأوراقها الطويلة تميل أحيانا بواسطة رياح غير مدركة، كما الوشاح مرفرفة أمام وجهيهما. كانا يجلسان بجلود رمادية على الأحجار الرمادية. تكرر الظلال نفسها على الجلود على الحجر الطحلبي المدبوغ.. يري كل منهما رفيقه في صحته وعدم حركته وهو يتحوّل إلى صورة حجر . سبحت الأسماك بين الأسل الجبارة ملونة



ظهورها بقوس قزح.. حين يطرح الرجلان خطافيهما، ويريان انتشار الدوائر، بين أعواد الغاب، يبدو كأنّ الحركة تتصاعد أقوي وأقوي، حتى يدركا أنها لم تحدث قط بسبب عملهما. هناك ترقد حورية بحرية، نصف بشر، ونصف سمكة مشرقة، تنام على سطح الماء.. إنها ترقد على ظهرها وكل جسدها تحت الماء، تغطيها الأمواج تقريبا لدرجة أنهما لم يلاحظاها من قبل.. إنه تنفسها، الذي سبب حركة الأمواج. ولكن لا توجد أي غرابة في رقادها هناك، وفي اللحظة التالية حين تكون قد ذهبت يصبحان غير متأكدين ممّا إذا كانت فعلا هناك، أم أنها كانت مجرد وهم.

يدخل الضوء الأخضر عبر العينين إلى المخّ مثل إفساد رقيق.. جلس الرجـــلان وبدءا بأفكار بليدة ، مشـــاهدين رؤي بين الغاب ، لم يكن أي منهما يجرؤ على أن يخبر الآخر بها.. كانت حصيلتهما فقيرة، وآل اليوم إلى أحلام وأشباح.

سمعت خبطات مجاديف بين الأكمات، فنهضا كما لو من النوم. وفي اللحظة التالية، ظهر قارب ذو قاع مسطح ثقيل، مفرّغ دون مهارة، وبمجاديف كالعصيان.. كانت فتاة بيضاء تجدف وهي تلتقط زنابق ماء بيضاء.. كان لها شعر بني قاتم، ملموم في ضفائر عظيمة، وعينان سوداوان كبيرتان، ومن ناحية أخري كانت شاحبة بغرابة، لكن شحوبها مال إلى اللون القرنفلي وليس إلى الرمادي. لم يكن لوجنتيها لون غالب مقارنة ببقية وجهها، بينما كانت لشفتيها قساوة كافية. ارتدت قميصا كتانيا أبيض وحزاما جلديا بمشبك ذهبي. كانت بلوزتها زرقاء مع حاشية زرقاء.. جدفت بجوار الخارجين على القانون دون أن تراهما.. ظلا كاتمين لأنفاسهما، ليس خوفا من أن يشاهدا، ولكن فقط حتى يكونا قادرين على

أن يرياها. حالما ذهبت، بديا كما لو أنهما تحوّلا من صورتين حجريتين إلى مخلوقين حيّين، وبابتسامة نظر كل منهما إلى الآخر.

قال أحدهما:

"كانت بيضاء كما زنابق الماء.. كانت عيناها غامقتين مثل الماء هناك تحت جذور شجرة الصنوبر".

كانا مستثارين جدا لدرجة أنهما أرادا أن يضحكا.. يضحكا بصدق، كما لم يضحك أحد أبدا بجوار تلك البركة، حتى أن المنحدرات أرعدت بصدي ضحكهما، وتحررت جذور أشجار الصنوبر من الخوف.

تساءل برج ريز:

- "أتظن أنها كانت جميلة؟".

- "أوه، لا أعرف، لقد شاهدتها لفترة قصيرة. ربما كانت..".

- "لا أصدق أنك جرؤت على التطلع إليها، لقد ظننتها حورية ماء".

ومرة أخري اهتزا بمرح غير عادي.

* * *

ذات مرة، حين كان تورد طفلا شاهد رجلا غريقا.. وجد الجسد على الشاطئ في يوم صيف، ولم يكن خائفا أبدا، لكن في الليل حلم أحلاما مروّعة.. رأي بحرا، حيث تدحرج كل موجة منه رجلا ميتا إلى قدميه.. رأي أيضا، أن كل الجزر كانت مغطاة برجال غرقي، ماتوا وانتموا إلى البحر، لكن الذي ما زال يستطيع أن يتكلم ويتحرك ويهدده، كان بيدين بيضاوين ذابلتين.

* * *

هكذا كان الأمر مع تورد الآن.. عادت إلى أحلامه الفتاة التي رآها بين الأسل.. قابلها خارج البركة المفتوحة، حيث سقطت أشعة الشمس أكثر اخضرارا بين نبات الأسل، وكان لديه وقت ليري كم كانت جميلة.. حلم أنه تسلق إلى أعلي جذر شجرة الصنوبر الضخمة في منتصف البحيرة المظلمة، ولكن شجرة الصنوبر ترنحت وتأرجحت لدرجة أنه كان أحيانا تحت الماء تماما، ثم تقدمت الفتاة إلى الأمام نحو الجزر الصغيرة، ووقفت تحت شجرة رماد الجبل وضحكت له، وذهب بعيدا في رؤي الحلم الأخير لدرجة أنها قبلته.. كان الصباح تقريبا، وسمع برج ريز وهو ينهض، لكنه بعناد أغلق عينيه حتى يكون قادرًا على أن يستمر مع حلمه.. حين استيقظ، كان كما لو كان مشوّش الذهن مترنحًا مذهولا بما حدث له في الليل.. فكر كثيرا الآن في الفتاة، أكثر مما فعل في اليوم السابق.

قرب الليل حدث أن سأل برج ريز إذا كان قد عرف اسمها.

نظر إليه برج متسائلا:

"ربما كان من الأفضل لك أن تعرفه".

ثم استطرد:

"إنها تدعي آن، ونحن أبناء عمومة".

حينئذٍ عرف تورد بأنه من أجل خاطر تلك الفتاة الشاحبة، تحوّل برج ريز إلى خارج على القانون في الغابة والجبل.. حاول تورد أن يتذكر ما عرفه عنها.. كانت مغرمة بأسلوبها الخاص، ولم تكن لديها رغبة في أن تتزوج.

آن وبرج كانا أبناء عمومة، وقيل منذ زمن بعيد إن برج يفضل أن يجلس مع آن وخادماتها ليمزح معهن عن أن يعمل في أرضه الخاصة. حين كانوا يحتفلون بأعياد الميلاد العظيمة في بيته، دعت زوجته راهبًا من

دراكسمارك، لأنها أرادته أن يناقش مع برج أنه نسيها من أجل امرأة أخرى.
كان هذا الراهب مكروها من برج ومن الآخرين أيضا بسبب مظهره. كان سمينا جدا وأبيض تماما.. كان كل شيء فيه أبيض، حلقة الشعر حول رأسه الصلعاء، حاجباه فوق عينيه المائيتين، وجهه، يداه، وكل عباءته. وجد كثيرون أنّ من الصعب أن يحتملوا مظهره.

على مائدة الاجتماع، حيث يمكن أن يسمع كل الضيوف، قال الراهب الذي لم يكن هيّابا، مفكرا في أن كلماته سيكون لها الآن تأثير أقوى، إذا سمعت بواسطة جمع كبير:

"اعتاد الناس أن يقولوا إن الهدهد هو أسوأ الطيور، لأنه لا يحفظ شبابه في عشّه الخاص، ولكن هنا يجلس رجل، لا يهتم ببيته وأطفاله، بل يبحث عن سروره الخاص مع امرأة غريبة.. سأسميه أسوأ الرجال".

عندئذٍ نهضت آن، قائلة:

"هذا يا برج موجّه لك ولي.. لم أُهن أبدا هكذا، خاصة وأنّ أبي ليس هنا أيضا".

رغبت آن في أن تذهب، إلا أن برج قفز وراءها، ولكنها قالت: "لا تتحرك! لن أراك ثانية".

تشبث بها في القاعة، وسألها عما عليه أن يفعل ليجعلها تمكث.

أجابت بعينين وامضتين، بأنه يجب أن يعرف ذلك الأفضل بنفسه. حينئذٍ دخل برج وقتل الراهب.

كان برج وتورد مشغولين بالأفكار نفسها؛لأنه بعد برهة، قال برج:

"كان يجب أن تري، آن، حين سقط الراهب الأبيض.. جمعت سيدة البيت الأطفال الصغار حولها ولعنتها، وأدارت وجوههم ناحيتها، حيث ينبغي أن يتذكروا إلى الأبد تلك التي جعلت أبيهم قاتلا. لكن آن وقفت

هادئة، وجميلة جدا لدرجة أن الرجال ارتعشوا، وشكرتني من أجل المأثرة، وطلبت مني أن أطير إلى الغابات، وحاولت أن تحذرني ألا أكون سارقا، وألاّ أستخدم السكين في حالة مماثلة حتى لو كنت أستطيع".

قال تورد:

"كان عملك من أجل شرفها".

حينئذٍ تولي برج ريز عملا كان غبيّا، كما لو ليلفّ حبلا حول رقبته.. بينما كان يتكلم، أصبح الفتي أكثر شغفا، وأكثر شحوبا، واتسعت عيناه كما لو بسبب رؤي مروّعة. رغب برج ريز أن يتوقف، لكن الأفكار تدفقت إليه، فاستمر يتكلم.. غمرهما الليل، ليل الغابة الأسود، حين نعبت البوم.. جاء الخريف بعصفة عنيفة.. ذهب تورد وحده ليتابع الفخاخ والشراك.. جلس برج ريز في البيت ليصلح الملابس، وقاده الطريق إلى ممرّ عريض إلى أعلي الغابات المرتفعة.

حملت كل عصفة ريح أوراق الشجر الجافة بحفيفها المدوّم إلى أعلي الممر.. ظنّ تورد مرّة بعد مرّة، أنّ شخصا يتبعه. وغالبا ما تلفت حوله، بل وتوقف أحيانا لينصت، لكنه فهم أنها الريح والأوراق، واستمر في طريقه.. حالما بدأ ثانية، سمع شخصا جاء وراءه راقصًا بقدم ناعمة إلى أعلي المنحدر، ودبّت خلفه أقدام راقصة لعدد من الأقزام والجن، وحينما استدار، لم يكن هناك أحد. دائما لا أحد.. هزّ قبضتيه أمام حفيف الأوراق واستمر.

لم تصمت تلك الأصوات، ولكنها اتخذت نغمة أخري.. بدأت تهسهس وتلهث خلفه، وجاءت أفعي كبيرة خبيثة تتسلل وراءه، قطّر لسانها سمّا تدلي بعيدا عن فمها، وتألق جسمها اللامع أمام الأوراق الزاوية. دمدم ذئب، وحش كبير كئيب، إلى جانب الأفعي وهو يستعد كي

ينقض عليه، فالتفّت الحيّة حول ساقيه وعضته في الكاحل.. كانا كلاهما أحيانا صامتين، كما لو أن الاقتراب منه غير مأمون، لكنهما سرعان ما خانا نفسيهما بالهسهسة واللهاث، كما قد ترتطم مخالب أحيانا أخري بحجر. مشي تورد لا إراديًا أسرع وأسرع، ولكن ذلك المخلوق مشي وراءه متعجلا، وحين شعر تورد بأنها فقط مسافة خطوتين بدأ يستعد للقتال، واستدار.. لم يكن هناك من شيء، وكان يعرف ذلك طوال الوقت.

جلس على حجر ليستريح، ثم لعبت الأوراق حول قدميه كما لو لتسليه.. كانت أوراق أشجار الغابة هناك.. أوراق أشجار بتولا صغيرة، خفيفة صفراء.. أوراق أشجار رماد الجبل حمراء مبقعة.. أوراق أشجار الدردار الجاف البنية الداكنة، أوراق الحور الرجراج الخفيفة المتينة الحمراء، وأوراق الصفصاف الصفراء الخضراء.. كانت كلها أوراق متطايرة ذاوية مشوّهة ممزقة، وكثيرا ما كانت غير متشابهة ملساء مصقولة برقة خضراء فاتحة.. تدحرجت تلك الأوراق بعيدًا عن براعمها منذ عدة أشهر.

حين استأنف تجواله، رأي تحته الغابات تنحني أمام العاصفة كبحر يتنهد، لكن الممرّ كان هادئا.. ثم سمع ما لم يشعر به، كانت الغابة تموج بالأصوات.

سمع همسات، أصوات نحيب، جوقة تهديدات، وعهود راعدة. كان هناك ضحك ونواح.. كانت هناك ضوضاء بشر كثيرين. تلك التي لاحقته وتعقبتـه ، حفّت وهسهست، وقاربت أن تكون شـيئا وما زالت لم تكن، فمنحته ظنونا موحشة.. شعر ثانية بكرب الموت، مثلما كان ممددا في عرينه على الأرض، وطارده الفلاحون خلال الغابة، وسمع ثانية الأصوات التي

تصاحب التجمعات، صوت تكسّر الفروع، وطء البشر الثقيل، رنين الأسلحة، صرخات متكررة، وضوضاء متوحشة صاخبة.

لكن لم يكن ذلك فقط، الذي سمعه في العاصفة، بل كان هناك شيء آخر، ما زال مروّعا أكثر.. أصوات لا يمكنه أن يفسّرها، فوضي أصوات تبدو له كأنها تتحدث لغات أجنبية. لقد سمع عواصف أكثر قوّة من هذه التي تصفر أثناء قيامها، ولكنه لم يسمع الرياح تعزف ألحان قيثارة متعددة الأصوات من قبل أبدا. كان لكل شجرة صوتها الخاص. شجرة الصنوبر لم تكن تغمغم مثل شجرة الحور الرجراج، ولا الحور مثل الرميداء.. كان لكلّ موضع صوت، يردد كل منحدر صدي دويّه الخاص. وامتزجت ضوضاء الغدير وصيحات الثعالب مع عاصفة الغابة الرائعة.. كان يمكنه أن يفسّر كل ذلك، ولكن كانت هناك أصوات أخري غريبة، إنها تلك التي جعلته يبدأ في الصراخ والاستهزاء والتأوّه محاكيا العاصفة.

كان يخاف دائما حين يكون وحيدا في ظلام الغابة.. لقد أحبّ البحر المفتوح والصخور العالية.. زحفت الأشباح والأرواح حوله من بين الأشجار.

فجأة سمع من كان يتحدث في العاصفة.. و حينئذٍ بدأ تورد يتكلم في غمرة العاصفة، أخبر الإله بما يودّ أن يفعل، ولكنه لم يكن قادرا. رغب أن يتحدث إلى برج ريز، وأن يرجوه أن يصنع سلامه مع الإله، ولكنه كان خجولا جدا. جعله حياؤه أخرسَ، فصرخ:

"حين سمعت أن الأرض يحكمها إله عادل، عرفت أنه رجل ضائع.. لقد كابدت وبكيت من أجل صديقي عدّة ليالٍ طويلة. وعرفت أن الإله سيكشفه أينما اختفي.. لكنني لم أكن أستطيع أن أتكلم أو أعلمه كي يفهم..

كنت فاقد النطق، لأنني أحببته كثيرا جدا.. لا تسل البحر أن يثور ضد الجبل".

كان صامتا، وفي العاصفة توقّف الصوت العميق، الذي كان صوت الإله بالنسبة إليه.. فجأة كان هدوء بشمس حادة ورشاش مجاديف وحفيف رقيق لأكمـات كثيفة .. أعادت تلك الأصوات صورة آن أمامه . لا يستطيع الخارج على القانون أن يحصـل على أي شيء ، لا الثروة ، ولا النساء، ولا تقدير الرجال. إذا استطاع خيانة برج، فمن الممكن أن يؤخذ تحت طائلة القانون. لكن آن لاشك أنها تحبّ برج، بعد ما فعل من أجلها، لا يوجد أي طريق بين ذلك جميعا.

حين تصاعدت العاصفة، سمع ثانية خطوات خلفه وأحيانا لهاثا مبهور الأنفاس.. إنه لا يجرؤ الآن على النظر وراءه.. جاء من الاحتفال بمنزل برج ملوّثا بالدماء،مع فجوة جرح بلطة في جبهته، وهمس إليه: "اتَّهِمْه، أَنْقِذْ روحَه.. دع جسده للمحرقة، لأن روحه هي التي يجب إطلاق سراحها. أتركه للعذاب البطيء، وللألم المبرح حتى تجد روحه وقتا لتتوب".

جري تورد.. كان كل ذلك الخوف، الذي كان لاشيء في ذاته، قد داعب روحه باستمرار.. رغب أن يهرب منها جميعا.. وحين بدأ يجري، أرعد ذلك الصوت المرعب العميق ثانية، والذي كان صوت الإله. لقد أنذره الإله بأنه يجب أن يسلم القاتل.. بدت جريمة برج ريز أكثر بغضًا بالنسبة إليه عما سبق. لقد قتل رجلا غير مسلح، طعن رجلا بصلب لامع.. كان ذلك تحديا لسيد العالم. وجرؤ القاتل على أن يعيش! وتمتع في ضوء الشمس بفاكهة الأرض، كما لو أن الأذرع الجبارة أقصر من أن تطوله.

توقف زامّا قبضتيه، وأطلق تهديدا.. ثم جري كمجنون من أسفل الغابة إلى الوادي.

* * *

بذل تورد جهدا حتى يعلن رسالته، وفورا استعد عشرة فلاحين كي يتبعوه. كان مقررا أن يصعد تورد وحده إلى الكهف؛ حتى لا تساور برج الشكوك.. لكنه كان قد بعثر حبات البسلة، ليمكن للفلاحين أن يتتبعوه.

حين وصل تورد إلى الكهف، كان الخارج على القانون جالسا على مقعد حجري، يخيّط.. منحت النار بصعوبة بعض الضوء. بدا أن العمل سيسوء.. امتلأ قلب الفتي بالشفقة. بدا له برج ريز العظيم فقيرا وغير سعيد، والشيء الوحيد، الذي يملكه هو حياته، التي يجب أخذها منه. بدأ تورد يبكي.

سأل برج:

"ما هذا؟ هل أنت مريض؟ هل أنت خائف؟"

حينئذٍ تحدث تورد للمرة الأولي عن خوفه:

"كان الأمر مرعبا في الغابة. سمعت أطيافا ورأيت أشباحا".

"سحقا، يا فتى!".

"تزاحموا حولي على طول الطريق إلى أعلي الجبل العريض. جريت لكنهم تعقبوني،". لم أستطع أبدا أن أتخلص من الصوت. ماذا كان على أن أفعل معهم؟ أعتقد أنهم يجب أن يذهبوا إلى شخص يحتاجهم أكثر".

"هل أنت مجنون الليلة، يا تورد؟".

تكلم تورد، متعرّفا بصعوبة على الكلمات يستخدمها.. ثم كان أن تحرّر من خجله، فتدفقت الكلمات من شفتيه.

"كانوا جميعا شاحبين كالموت. لديهم جميعا دماء على عباءاتهم.. سحبوا أغطية رءوسهم إلى أسفل جباههم، ولكن الفجوة ما زالت تضيء في الرأس من أسفل فجوة الجرح الحمراء الكبيرة من ضربة البلطة".

تساءل ريز:

ـ "فجوة الجرح الحمراء الكبيرة نتيجة البلطة؟".

ـ "هل أنا الذي فعلتها؟ لماذا أراها؟".

قال برج ريز شاحبا بقلق شديد:

"القديسون فقط هم من يعرفون، يا تورد"..

ثم استطرد:

"لكن ماذا يعني أنك رأيت جرحا من بلطة، لقد قتلت الراهب بطعنتي سكين؟".

وقف تورد مرتعشا أمام برج، وهو يعتصر يديه:

ـ "إنهم يطلبونك منّي، يريدون أن يجبروني على خيانتك!".

ـ "من؟ الرهبان؟".

ـ "هم، نعم، الرهبان. أروني رؤي. أروني إيّاها، آن. أروني البحر المشمس المضيء. أروني معسكرات صيادي السمك، حيث يوجد رقص وبهجة. أغلق عيني، لكنني ما أزال أري.. أقول: دعوني في سلام، لقد قتل صديقي، لكنه ليس سيئا.. دعوني، وسأكلمه، حتى يتوب ويكفر عن ذنبه. سيعترف بالذنب؛ حتى ينزع كل هذا الذنب بعيدا عنه".

سأل برج:

"وبماذا أجابوا؟ إنهم يريدونني سالما، يريدون أن ينالوني سليما حتى أتعذب".

سألتهم:

"هل أخون أعز أصدقائى؟".

استطرد تورد:

"إنه عالمي. لقد أنقذني من الدبّ الذي وضع مخالبه على حلقي. كم بردنا وعانينا كل رغبة معا. حين كنت مريضا فرش جلد الدب على.. وحملت خشبا وماء من أجله.. حرسته وهو نائم، وخدعت أعداءه. لماذا يظنّون أنني الشخص الذي سيخون صديقا؟! سيذهب صديقي وفق إرادته إلى القدس ويعترف، ثم نمضي معا إلى أرض التكفير"!

أنصت برج بشغف، بحثت عيناه بحدة عن وجه تورد، وقال:

ـ " أنت تحتاج إلى أن تكون بين الناس".

ـ "إذا ذهبت وحيدا هل سيساعدني ذلك، لأن الموت وكل أشباحه تتبعني، بسبب من خطيئتك؟ ألا تري كيف تروّعنى؟ لقد رفعت يدك ضد الإله نفسه.. ليست هناك جريمة كجريمتك. أظنّ أنني يجب أن أبتهج حين أراك تنال عقابك، لأنّ هذا حسن لمن ينال عقابه في هذا العالم، ويهرب من الغضب الآتي.. لماذا أخبرتني عن الإله العادل؟ أنت تجبرني على أن أخونك. أنقذني من هذا الذنب..".

سقط بورج على ركبتيه أمام برج.. وضع القاتل يده على رأسه، ونظر إليه. كان يعاين خطيئته أمام آلام صديقه المبرحة، وهو ما ضخّم الأمر حتى

صار مرعبا أمام روحه.. رأي نفسه مختلفا بيد الإرادة التي تحكم العالم، ودخلت التوبة إلى قلبه، فقال:

"تبّا لي أنا الذي فعلت ما فعلت. إنّ ما ينتظرني أشد صعوبة من أن أتقبله طوعا.. أو ليست هذه حياة بائسة، تلك التي نقضيها في خوف ونريد توبة كافية؟ ألم أفقد البيت والأراضي؟ ألم أعش منفصلا عن الأصدقاء وكل ما يصنع سعادة الإنسان؟ ما المطلوب أكثر من ذلك؟".

حين تحدث هكذا، قفز تورد متوّحشا وهو يصرخ برعب:

"أتستطيع أن تتوب؟ هل حركت كلماتي قلبك؟ إذًا تعال للحظة! كيف يمكن أن أصدّق ذلك! دعنا نهرب! ما زال هناك وقت".

قفز برج ريز هو أيضا:

"إذًا، لقد فعلتها..".

"نعم، نعم، نعم! لقد خنتك! لكن تعال بسرعة! تعال، بقدر ما تستطيع التوبة! سيدعوننا نذهب.. سوف نهرب منهم!".

انحني القاتل إلى الأرض؛ ليلتقط البلطة التي ترقد عند قدميه ، استعدادا للمعركة القادمة، قائلا وهو يهسهس بالكلمات:

"يا ابن اللص! لقد وثقت بك وأحببتك"!

حين رآه تورد ينحني على البلطة، عرف أن القضية أصبحت الآن حياته هو.. انتزع بلطته من حزامه الخاص، وضرب برج قبل أن ينهض.. انطلقت حافة البلطة خلال صفير الهواء، وغاصت في الرأس المنحني.. سقط رأس برج ريز أولا على الأرض، وتدحرج جسمه تاليا.. تفجرت الدماء والمخ، وسقطت البلطة من الجرح، وشاهد تورد في الشعر الملوث أسفل البلطة فجوة جرح حمراء كبيرة.

جاء الفلاحون مندفعين.. ابتهجوا، وامتدحوا العمل.

قالوا لتورد:

"ستكسب بهذا".

نظر تورد إلى يديه، كما لو أن هناك أغلالا دفعته إلى أن يقتل من أحبّ. كانت مشكلتين من لا شيء.. لقد خلقتا من ضوء الأجمات الأخضر، من اللعب، من الظلال، من الأغنية، من حفيف الأوراق، ومن الأحلام.

عاوده الظنّ القديم مرّة أخري.. سقط على ركبتيه بجوار الجسد ووضع ذراعه تحت رأسه، قائلا:

"لا تؤذوه، فقد تاب.. إنه لم يمت.. لقد كنّا فقط نستعد للذهاب حين سقط.. لم يرد الراهب الأبيض له أن يتوب".

رقد بجوار الجسد، تحدّث إليه، وبكي، ورجا الميت أن يستيقظ. رتّب الفلاحون نعشا. أرادوا أن يأخذوا جثمان الفلاح إلى بيته. كانوا يحترمون الموت، وتحدّثوا بصوت خافت في حضرته. وحين نقلوه إلى النعش، نهض تورد، أرجع الشعر عن وجهه إلى الوراء، وقال بصوت اهتزّ بالنشيج:

"قولوا لآن، التي جعلت برج ريز قاتلا، إنه قتل بواسطة تورد صياد السمك؛ لأنه علّمه أن أساس العالم هو العدل".

***

إديث وارتن

"إيثان فروم"

كنت أعمل في وظيفة بمحطة توليد كهرباء كوريري جانكش، ثم توقف العمل لفترة طويلة بسبب إضراب النجارين، فاضطررت إلى الإقامة جبرًا خلال فصل الشتاء القارص البرد في قرية ستاركفيلد الريفية القاسية؛ لأنها كانت أقرب مكان لمقرّ عملي.. كانت قرية فقيرة منحوتة من صوان قاسٍ، وهو ما جعل الحياة فيها شديدة الصعوبة.

هناك في تلك القرية، رأيت إيثان فروم للمرّة الأولي في مكتب البريد، فولّد لدي منذ تلك اللحظة انطباعا غريبا.. كان فروم نحيفا طويلا، لديه عرج أصيب به في حادث وقع منذ أربعة وعشرين عاما. كان الشيب قد غزا محياه، مغلق الوجه دوما على تعبير قاسٍ. وعلي الرغم من أنه يتمتع بقوّة ميسّرة في جسمه، إلاّ أنني حين رأيته، كنت كمن ينظر "إلي بقايا إنسان".

سحرتني شخصية إيثان فروم، فحاولت أن أكتشف مزيدًا عنه.. كان أول مصدر للمعلومات هو هرمون جاو ، سائق العربة العمومية ، التي تقلّ الركاب بين بتسبرج وستاركفيلد .. عرفت منه أنه لم يكن قادرًا أبدا على مغادرة ستاركفيلد، على الرغم من أن "غالبية الأذكياء قد رحلوا عنها".. كان إيثان قد التصق بستاركفيلد منذ فجر شبابه، فقد كان هناك دائما شخص في مزرعة فروم يتولي رعايته .. كان هناك أولا والدا إيثان ، وعندما توفيا ، كانت هناك زوجته ، ثم كانت هناك تلك الفتاة المسحوقة في الحادث.

كان جاو قد حكي لي بعضا من قصّة فروم.. لكنني شعرت أن "المعني الأعمق كان مليئا بالفجوات".

***

اعتدت بمضي الأيام قسوة الحياة في ستاركفيلد. وعلي الرغم من أنني شعرت في البداية بالانتعاش من السماء الزرقاء الصافية، ولون الجليد الأبيض الصادم الذي يغطي الأرض، فقد شاهدت فترات من تلك السماء الزرقاء نفسها، والجليد المتساقط يلتمع فيها، متبوعا بأسابيع من برد وظلام، عندئذٍ فهمت فقدان الحسّ، الذي طبع شخصية السكّان، وموات ذلك المجتمع.

أقمت في قرية ستاركفيلد، في غرفة في بيت عند أرملة تدعي السيدة نيد هيل، كانت ابنة محامي القرية السابق، وكان بيت المحامي فارنوم هو أكبر بيوت القرية على الإطلاق، لكن الهموم حطّت عليه، بعد أن مرّت بالأسرة أوقاتًا عصيبة.

كنت أنصت ليلا إلى حديث الأرملة العجوز حول ستاركفيلد وسكانها، ولكنها ظلت صامتة على نحو غريب بالنسبة لموضوع إيثان فروم.

***

كان دينيس ايدي، صاحب محل بقالة القرية، أيرلندي الأصل، إضافة إلى امتلاكه إسطبلا لتأجير عربات النقل، وهو من وفّر لي وسيلة انتقال يومية إلى مواقع شركتي؛ حتى يمكنني أن ألحق بقطار يقلني إلى مقرّ عملي.. وحين مرضت جياد ايدي، اقترح هرمون جاو على أن أستأجر إيثان فروم، ليستفيد ببعض المال، فقد كانت ظروف مزرعة فروم صعبة، وقد كانت دائما هكذا.

وهكذا ولفترة قصيرة، كان إيثان فروم يصل كلّ صباح بزحافته، التي كان يقودها إلى مواقع كوريري.. كان فروم مُقِلا في حديثه، يجيب عادة عند الحدّ الأدني على أسئلتي. وذات يوم نسيت كتابا في الكيمياء العضوية مصادفة بالزحافة.. وحين التقطه فروم متأخّرا في ذلك اليوم، رأيت أن الكتاب فتنه تماما، لكن مثلما قال بتواضع: "هناك أشياء في هذا الكتاب، لم أفهم كلمة منها"، فأعرته الكتاب، وكم كنت متأثرا من التقابل البادي بين فضول فروم ومحدوديّة بيئته.

وبعد مضى أسبوع من انتظام فروم على توصيلي يوميا، إذا بعاصفة ثلجية رهيبة تتسبب في تعطيل حركة السكك الحديدية.. وحين وصل فروم في موعده الصباحي، عرض أن يقلني على امتداد المسافة كلها إلى مقرّ عملي، وهي مسافة تقترب من عشرة أميال، فقبلت وأنا مندهش من كرم عرضه. وفي طريق العودة إلى البيت متأخرا في ذلك اليوم، أصبح تساقط الثلج أكثر ضراوةً، وازدادت الأمور سوءا، حتى بدا من الواضح استحالة سلوك طريق العودة إلى القرية. كان بيت فروم في الطريق، فعرض أن أقضي الليلة في بيته، وكانت تلك "هي الليلة، التي وجدت فيها مفتاح شخصية إيثان فروم، وبدأت أضع أجزاء هذه القصة معا".

لنرجع الآن إلى الوراء في الماضي، لمدّة تقترب من العشرين عاما، حين كان إيثان فروم يمشي في قلب القرية، مارًّا بمخزن قرميد إيدي الجديد، ومنزل فرنون المحامي. كانت تلك ليلة شتائية باردة ومنعشة، ذكّرت فروم بأحد المبادئ التي تعلمها من دراساته العلمية، عندما التحق منذ خمس سنوات بمناهج تكنولوجية في كلية وورد سشتر، لكن موت والده أنهي تعليمه؛ لأنّ فروم توجّب عليه أن يعود إلى البيت لرعاية أمه والمزرعة.

كان هناك حفل راقص في قبو الكنيسة، فاتخذ إيثان لنفسه موقعا وراء نافذة، يمكنه منه أن يري ما يجري بالداخل. لقد جاء إلى هنا كي يلتقط "ماتي سيلفر"، إبنة عمة زوجته. كان يؤثر أن يلقي نظرة على ماتي، فوجدها ترقص مع دينيس ايدي، ابن البقال الأيرلندي، فشعر إيثان بتيار شديد كثيف من الغيرة، حين رأي السعادة على وجه ماتي، ونظرة تملك على وجه إيدي.

كانت ماتي قد عاشت في مزرعة فروم ما يربو على عام، بعد أن جاءت لتقدّم العون لزينا، زوجة إيثان، بالقيام بالأعباء المنزلية. كان لماتي حجرة مستقلة، بالإضافة إلى الطعام، لكنها لم تكن تحصل على أي أجر.

وفي تلك الليالي، التي كانت تذهب فيها إلى الرقص أو إلى أي حدث اجتماعي آخر بالقرية، كانت مهمّة إيثان أن يعيدها ثانية إلى البيت. وبعد يوم شاق من العمل الصعب، فإنّ ميلين إضافيين من وإلي المدينة كانا أمرا متعبا، لكن إيثان كان يحبّ الوقت الذي ينفرد فيه مع ماتي. وكانت ماتي تشبهه في حساسيتها للجمال الطبيعي.. كان قد وجد فيها شخصا يتبادل معه الحديث حول جمال الأرض متداخلا مع بعض النثار الصغير من عمل يعرفه. كانت حيويتها تنعشه، وكان قد وقع في حبّها.. ولم يكن يعرف ما إذا كانت لدي زينا أي فكرة عن مشاعره تجاه ماتي.

كانت زوجته زنونيا، امرأة مريضة دائمة الشكوي، لكنها أحيانا كانت تدهش إيثان حين تبرهن فجأة على دقّة ملاحظتها أكثر ممّا توقع، فقد لاحظت أنه منذ مجيء ماتي، أصبح إيثان يحلق ذقنه يوميا. لقد ذكرت التغيّر الغريب، مثيرة دهشة إيثان، لأنه افترض أن زينا كثيرة النسيان للأشياء، ما عدا استعراضها اللامتناهي لمشكلاتها الصحية.

* * *

بينما كان الراقصون يغادرون قبو الكنيسة، اختبأ فروم وراء باب العواصف الخارجي.. رأي ماتي تنتظر مجيئه، لكن فجأة تغلب عليه شعور بالعصبية والخجل. وبينما هو يراقب، غازلها دينيس إيدي، ودعاها ليوصلها في زحافته.. لم يستطع فروم أن يجبر نفسه على التدخل. بدا أن ماتي تفكّر في العرض، ولكنها سرعان ما تملصت من إيدي، مخبرة إيّاه أنه لا يمكنها الركوب معه. وحين أصرّ صدّته بعزم، ومضت في طريقها كما لو أنها ستعود وحدها مشيا على قدميها على مزرعة فروم.

أدركها إيثان، وكان راضيا لأنّ ماتي رفضت أن تذهب مع دينيس إيدي.. تشابك ذراعيهما، وقطعا طريق العودة إلى البيت سيرا على الأقدام. وحين كانا يعبران إلى جوار أفضل تلال الانزلاق بالقرية، تحدثا حول إمكانة "التزحلق" على الجليد ذات ليلة، حين يكون القمر مضيئًا. تذكرت ماتي زوج المتزلجين على الجليد، اللذين قضيا نحبهما تقريبا على الجرف في قاع التل، فوعدها إيثان بأنها ستكون في أمان معه، وهو يتولي القيادة.

لم يتمالك إيثان نفسه، لفت نظرها إلى أنها ظلت هناك بالداخل فترة بعد الرقص، وقال إن ما يقوله الناس صحيح، من أنها ستغادر مزرعة فروم قبل مضي وقت طويل.. بدا أن ماتي قد أحبطتها تلك الفكرة، وهو ما جعل إيثان سعيدا، وفي النهاية أزعجتها فكـرة رحيلهـا بقـدر ما أزعجته. عبرا فناء مقبرة آل فروم، فشعر إيثان أن القبور تقدّم لهما وعدا بالاستقرار.

قبل ذلك، كانت القبور تبدو دائما وكأنّها تسخر من رغبته في الرحيل عن ستاركفيلد.. تعثرت ماتي قرب نهاية النزهة، فوضع إيثان ذراعه حولها كي يسندها، وكانت المرّة الأولي التي كانا فيها معا بمثل هذا القرب، وظلا متصلين بهذا الشكل حتى وصلا إلى باب البيت. كانت زينا عادة ما تضـع المفتاح لهما تحت حصيرة هناك . لكن المفتاح لم يكن هناك، وقلق إيثان من

أن يكون أمر ما قد حدث. سمعا ضوضاء بداخل المنزل، وسرعان ما فتح الباب، كاشفا عن زينا. قالت إنها شعرت بتعب شديد منعها من النوم.

كانت رؤية زينا مثل نهاية حادة لحلم سعيد، بعد سعادة النزهة مع ماتي.. بدت قاسية، غاضبة، مسطحة الصدر، بفم تبدو فيه الأسنان الصناعية بوضوح . كان ضوء المصباح يعرض كل تغضّن في وجهها القاسي. لم يحبّ إيثان فكرة أن تشاهده ماتي وهو يصعد هذه الليلة إلى الفراش مع زوجته، فحاول أن يتلمّس عذرا للبقاء ببئر السلم لفترة أطول، لكن ذلك كان سيبدو تصرفا غريبا خاصة مع نار المطفأة، وهو ما كان سيدهشها تماما، مثلما بدا ذلك من نظرة ماتي المحذرة، فرضخ إيثان، وصعد السلالم مع زوجته.

مضى إيثان إلى الفراش متسللا، بعد أن أطفأ الشمعة، كي يتفادي النظر إلى زوجته.. أمكنه أن يتابع ضوء شمعة ماتي الواهي، الذي كان يتسرّب من أسفل باب الغرفة، وراح يراقبه على امتداد الجانب الآخر حتى تلاشي.. تمنّي لو قبّلها، عندما كانا يتنزهان معا.

***

بينما كان إيثان فروم يحمّل قطع الأخشاب من الغابة مبكرا في اليوم التالي، استعاد أحداث الليلة الماضية والظروف التي جاءت بماتي إلى ستاركفيلد.. كان والدها ابن عمّ زينا.. ارتحل من التلال إلى كونكتكت، ولكنه مات شابا قبل أن يصنع ثروته. ماتت زوجته بعده بقليل، تاركة ماتي كي تعول نفسها.. لم تكن تتمتّع بأية مهارات حقيقية، ولم تتوافق مع صعوبات العمل من أجل أن تتماشي مع ظروفها الصحية.

وحين أوصي الطبيب زينا بضرورة أن تجد مدبرة غرف، رتبت الأسرة الأمور حتى تنتقل ماتي إلى مزرعة فروم لتقيم فيها. وعلي الرغم من أن

الظروف في المزرعة كانت أصعب من حياتها القديمة في كونكتكت، فإنّها كانت مبتهجة وسعيدة. ومع أنها كانت تمتلك موهبة محدودة في تدبير شئون المنزل، فإن عدم درايتها أغاظت زينا.

فكّر إيثان في التوتر الموجود في منزله، وهو ينهي نقل وتحميل أشجار الغابة.. كان قلقا من أن شجارا سينشب بين ماتي وزينا، لذلك قرر أن يعود إلى البيت بدلا من تسليم كمية الأخشاب. حين وصل إلى البيت، وجد زوجته مرتدية ملابسها متهيّئة للسفر، بعد أن قررت أن تسافر إلى بتسبريدج لترى طبيبا جديدا هناك، بالإضافة إلى أنها ستقضي ليلة مع عمتها. وللمرة الأولي منذ وصول ماتي، سيتاح لهما أن يكونا وحدهما في البيت على مدار ليلة كاملة دون زينا.. كان إيثان يتوق إلى تفادي الركوب طويلا مع زينا، لذلك قرر أن يستأجر جوثام بوول ، ليستخدم الفرس الأسمر في نقل زينا إلى محطة السكك الحديدية، بينما يستخدم إيثان الخيول الأخري، لنقل حمل الأخشاب.

***

كان إيثان وهو ينقل حمل الأخشاب إلى أندرو هال، يتطلع إلى الأمسية القادمة مع ماتي.. بعثت فيه الصفافير والإشارات على امتداد الطريق هناك، شرارة حياة بأن ستاركفيلد لم تستوف منه دينها بعد. كم كان أكثر قوة حين كان أصغر.. كان معروفا في وورستر بأنه قليل الكلام، ولكنه رغم كونه هادئا فقد أحبّ صحبة الآخرين. وبعد أن رجع إلى المزرعة ليرعي أمه، أصبحت أمّه أكثر غرابةً.

وقرب النهاية نادرا ما كانت تتحدث، فجاءت ابنة عمه زينا بيرس، كي تساعد في الاعتناء بها.. بدت زينا مليئة بالحيوية في البداية، فأمدّت إيثان

بالصحبة والحوار اللذين تاق إليهما طويلا، وكانت ماهرة في تدبير شئون المنزل، وهو ما جعل إيثان يسترد بعضا من حريته، التي عرف بها ذات مرة.

حين ماتت الأم، لم يتحمّل فكرة أن يصبح وحيدا مرة أخري، فطلب من زينا أن تبقي في البيت كزوجة له. كان لديهما في البداية مشاريع لبيع المزرعة والانتقال إلى المدينة. لكن متاعب مالية وندرة عدد المشترين أحبطت مشاريعهما، وسرعان ما أصبحت زينا مسكونة بمرضها، دائمة الشكوي. كما قضي وسواسها المرضي على إمكانة مغادرة ستاركفيلد. وبعد مضى سنة أصبحت زينا تماما مثلما كانت أم إيثان.

كان إيثان قد اضطر إلى الكذب، كي يبرر عدم إمكانة توصيل زينا إلى محطة السكك الحديدية، حين قال بأنه يحتاج إلى أن يسلم حمولة الخشب شخصيا ليحصل على مقدّم نقدي. وكم أسف لاضطراره إلى الكذب، مفكّرا بأنه إذا حصل على نقدية.. فإن إسراف زينا في شراء أدويتها سيزيد. قرر إيثان بشكل لا يتناسب مع شخصيته، أن يبتلع بعضا من كرامته، ويطلب أن يدفع هال مقدما بدلا من الدفع الربع سنوي المعتاد. لكن بمجرد أن سأله، انتابه الخجل. لم يكن هال راغبا في الدفع النقدي، رغم أن رفضه كان بلطف كافٍ، وكان إيثان أكثر صلفا من أن يقول إنه يحتاج إلى المال فعلا.

حين أنجز إيثان بعض المهام في القرية، هرول سريعا إلى دينيس إيدي، وكان قلقا من أن يمضي الشاب رأسا إلى مزرعة فروم.. تعثر إيثان في الثنائي نيد هال وروث فرمون، وهما يتبادلان القبلات، فتأكد له أن هذا الثنائي لا يحتاج إلى إخفاء هواه، بينما كان يعذب نفسه لمجرد قبلة بسيطة من ماتي.

في طريق عودته إلى المزرعة اهتم بقراءة شاهد مقبرة، كان دائما يثير انتباهه، لأن الرجل في قبره كان يشاركه الاسم نفسه:

"مقدسة ذكري إيثان فروم وثبات محنة زوجته، اللذين ظلا معا بسلام خمسين عاما".

* * *

حين وصل إيثان إلى البيت، وجد الباب موصدا، وتطلب الأمر فترة حتى أجابت ماتي.. ذكّره الانتظار كثيرا بالليلة السابقة، في حين أنه الآن لم يكن يتوقع رؤية زينا هناك. لكن ها هي ماتي، وشعرها مربوط بوشاح أحمر. ازداد فرحه لمجرد وجوده معها.

جلسا معا لتناول العشاء، لكن الحوار بدا متعثرا.. كان أي ذكر لاسم زينا سيجعل منه شخصا أخرق، فتظاهر بأنّه جائع، حتى يأكل بدلا من أن يتحدّث. قفز القطّ على طبق المخلل وحطمه، فأصاب ماتي الذعر: كان طبقا أحمر جميلا، إحدي هدايا زفاف زينا.. كان قد تمّ شراؤه خصيصا من فيلادلفيا، ولا يوجد بديل له هنا في ستاركفيلد يمكن شراؤه. بدأت ماتي تبكي، لأنّ زينا ستودّ أن تعرف أولا لماذا استخدم طبقها. تحمّل إيثان مسئولية الموقف، مجمّعا أجزاء الطبق معا، وأعاده على أعلي الرفّ حيث كان محفوظا هناك. سوف يقوم بلصقه غدا، وربّما يستغرق الأمر شهورا قبل أن تتأكد زينا ممّا حدث. لم تعرف ماتي ما فعل، لكنها كانت تثق به كفاية حتى لا تسأله عمّا يفعل. كان إيثان مستثارا من أنها خضعت لتأثيره، ممّا جعله يشعر بقوة وقدرة على السيطرة.

استقر إيثان وماتي معظم الليل إلى جوار النار.. كان إيثان لا يري ماتي من موقعه بجوار النار، فدعاها إلى الجلوس على كرسي زينا الهزاز. حين

جلست هناك، تخيّل إيثان لوهلة أنه يري وجه زينا هناك بدلا من وجه ماتي.. بدا أن ماتي كانت هي أيضا غير مستريحة في ذلك الوضع، إذ سرعان ما عادت إلى مكانها من المائدة، مدّعيةً أن ضوء المدفأة ليس متوهجا كفاية كي يساعد على أعمال الخياطة. جري الحوار في البداية بيسر.. تحدّثا حول ما يجري في القرية، وناقشا إمكانة التزلج ذات ليلة.

قرّب إيثان كرسيه من مائدة ماتي.. أصبح الحوار مرتبكا. استحضر إيثان سيرة نيد وروث على أمل أن يتيح الحديث حول هذا الثنائي الفرصة للمسة ناعمة.. لكن ذلك لم ينجح؛ لأن الحوار سرعان ما تحوّل إلى رحيل ماتي ذات يوم، فقلقت ماتي من أن تكون زينا غير راضية عنها. كان يقلقها أن تجبرها زينا على الرحيل.. عبّر إيثان عن رفضه لفكرة رحيل ماتي، وجعلت هيئته الجادة وجه ماتي يحمّر خجلا.

قفزت القطة، التي كانت تجلس في كرسي زينا، لتطارد فأرا، وجعلت القفزة كرسي زينا يهتزّ، وهو ما ذكّر إيثان أن زينا ستكون جالسة هناك في مساء الغد.. لمس طرف القماش الذي كانت ماتي تخيطه.. أمسكه بثبات في يده، ثم رفعه إلى شفتيه في قبلة رقيقة، وسرعان ما جمعت ماتي عملها. كان كلاهما يقوم بآخر الأعمال الروتينية الليلية، استعدادا للذهاب إلى الفراش، كلاهما في غرفة نوم منفصلة.. تذكّر إيثان أنه لم يلمسها مرة واحدة من قبل أبدا.

وصل جوثام بوول، الرجل المستأجر مبكرًا ، الذي جاء للمساعدة في تحميل كمية الأخشاب.. كان إيثان سعيدا خلال الإفطار بشكل يصعب تفسيره. وعلي الرغم من أن شيئا لم يتغيّر، فقد شعر كما لو أنه تذوّق طعم الحياة مع ماتي، فخطط أن ينجز أعماله مبكرا بشكل كافٍ كي يمكنه شراء الغراء، ليصلح الطبق قبل وصول زينا.



لكن العمل مضى بشكل صعب، لأن المطر المتجمّد جعل الطرق غادرة، وأزناد الخشب ملساء، لدرجة أن تحميلها استغرق وقتا أكثر من المعتاد، لذلك لم يتمكن إيثان من الانطلاق إلى القرية إلاّ في وقت متأخر.. كان يأمل أن يعيد تثبيت الطبق قبل أن يعيد جوثام زينا من محطة السكك الحديدية، لكن واجهته في القرية صعوبة وجود الغراء.

حين أدخل زحافته ثانية إلى الحظيرة، رأي إيثان أن الفرس الأسمر لم يكن هناك، فافترض أن زينا لم تصل بعد إلى البيت، فاندفع إلى المطبخ معلنا بفخر لماتي أنه مازال هناك وقت لإصلاح الطبق، فإذا بها تهدّئه، هامسة إليه أن زينا قد وصلت.. لم يكن الفرس الأسمر في الحظيرة، لأن جوثام بوول استعاره لإحضار بعض المؤن إلى بيته، وقد صعدت زينا مباشرة إلى غرفة نومها، ولم تبزغ منها بعد.

حين عاد جوثام مع الحصان، دعاه إيثان لتناول العشاء، لكن جوثام رفض، وهو ما جعل إيثان قلقا ، لأن جوثام لم يرفض من قبل أبدا تناول أي وجبة طعام، وعندما انصرف عاد إيثان ثانية إلى المطبخ ، ليجد أن العشاء قد أعدّ.

***

صعد إيثان ليدعو زينا للنزول لتناول العشاء، فأخبرته زينا على نحو مشئوم، أنّها أصبحت أكثر مرضا ممّا يعتقد، لأن هناك "تعقيدات" في حالتها.. أصبح إيثان موزّعا بين الرغبة في موتها والشعور بالشفقة عليها، وسرعان ما تغلبت قوّة عاطفته على أنانيته. كانت المحادثة مكثفة، مليئة بأخطاء فادحة، فقد كانت زينا صعبة الإرضاء، سريعة الهياج.. أخبرته أن الطبيب أخبرها بأنها تحتاج إلى راحة لعدّة أشهر،دون القيام بأي عمل مهما

كان أمره. كما أوصي الطبيب باستئجار ممرضة، وقد تعاقدت زينا فعلا مع واحدة على المجيء.

عندئذٍ ثار إيثان غاضبا، لأنه ببساطة لم يكن يمتلك المال اللازم لذلك.. فجأة اندفعت زينا قائلة، إنها أصبحت مريضة بسبب الاعتناء بأم إيثان. هكذا انفجر الشجار بينهما ضاريا، فكانت تلك هي المرة الوحيدة خلال زواجهما، التي أظهرت فيها زينا وإيثان مثل هذا الكم من الغضب الصريح.. تشاجرا بسبب المصاريف، فذكّرته زينا بالمال المتوقع من تسليم حمل الخشب، فوقع إيثان في كذبته، وكان يفتقد إلى مهارة التهرّب مما قال. كما أشارت زينا إلى أن مصاريفهما ستقلّ الآن، لأن ماتي سترحل.. أصبح إيثان مرعوبًا، فلم يكن يتخيّل أبدا إمكانية إبعاد ماتي.

صعدت ماتي لتدعوهما للعشاء، فأعلنت زينا أنّها لن تتناول العشاء، فرجعت ماتي إلى هبوط السلم ثانية. حاول إيثان أن يقنع زينا بالإبقاء على ماتي، لكنها كانت متشبثة برأيها.

هبط إيثان لتناول الطعام ، ولكن لم تكن لديه أية شهيّة . ظلت ماتي تسأل عمّا حدث ، وبدلا من أن يجيب ، جذبها إيثان إليه وقبلها ، فبادلته القبلة ، لكنها انسحبت بعد وهلة .. قال إيثان دون تفكير خجلا : "لا يمكن أن ترحلي، يا مات!، لن أتركك أبدا!". ثم أخبرها عن أوامر طبيب زينا، وقرارها، وكان كلاهما يعرفان جيّدا أن زينا لن تغيّر رأيها، وأصبح على ماتي أن تواجه مستقبلا غامضا.

هبطت زينا السلالم، بعد أن قررت أن تتناول العشاء رغم كل شيء.. تحدّثت بصوتها الممتد المنتحب، وهي تأكل، ساردة قصصا حول متاعب أصدقائها وأقاربها المعوية في بتسبريدج. عانت بعد العشاء من حرقة

بالمعدة، فمضت لتتناول بعض الأدوية الخاصة بالمعدة، ورجعت ثائرة، دامعة العينين، وقطع طبق المخلل المكسور بين يديها.. حاول إيثان أن يلقي الذنب على القطة، لكن ماتي اعترفت أنها قد أنزلت الطبق وهي تحاول أن تحمل المائدة.. لم تكن زينا قد استعملته من قبل أبدا، حتى حين كانت تزورهما مع أي صحبة.. كانت مجنونة حزنا وغضبا، وهي تصيح: "أنت فتاة سيئة، يا ماتي سيلفر. وكنت أعرف ذلك دائما. إنّه الأسلوب نفسه الذي بدأه أبوك، وقد سبق أن حذروني حين قبلت، وقد حاولت أن أضع حاجياتي بعيدا عن متناول يدك، وها أنت قد دمرت الشيء الوحيد، الذي منحته أعظم عناية على الإطلاق". وغادرت الغرفة مع بقايا الطبق المهشم، ممثلة كما لو كانت "تحمل جسدا ميتا".

***

قام إيثان بتأمّل صغير في الطابق الأول، أنجزه بمحاكاة متواضعة لتأمّل كاهن كان طيبا معه في وورسستر. منذ جاءت ماتي، نقل الفرن إلى غرفتها، التي كانت غير مأهولة في الشتاء، ولكنه ذهب إلى هناك الآن، محاولا أن يجد طريقا لاستعادة حياته ثانية. حمل معه ملاحظة صغيرة كتبتها ماتي، وتركتها على مائدة المطبخ، كتبت فيها: "لا تقلق، يا إيثان".

إنه يتذكّر حالة شخصين سبق أن واجها موقفا مماثلا، حين طلّق رجل زوجته وفرّ غربا مع فتاته الجديدة، وقد انتقده الجميع، وباعت الزوجة السابقة المزرعة، وبدأت أعمالها، بعد أن ارتحل الرجل وزوجته الجديدة غربا.. بدأ كتابة رسالة وداع لزينا، كان يحاول أن يخطط ذات مجري الحدث لنفسه، فتأكّد له أن الهرب مستحيل. لن تكون زينا قادرة على بيع المزرعة بأي مبلغ معتبر، وليست لديها وسائل للمعيشة في الوقت نفسه.. أما

بالنسبة إليه وإلي ماتي، فلم يكن لديهما مال كافٍ للارتحال غربا.. سقط إيثان في النوم أثناء تأمّله، رغم البرد.

***

جاء جوثام بوول في الصباح التالي. ستأتي المركبة في وقت متأخر من هذا النهار لتلتقط حقيبة سفر ماتي الثقيلة، وسيأخذ جوثام ماتي إلى محطة السكك الحديدية، عند ذهابه لإحضار الممرضة المستأجرة الجديدة.

توجّه إيثان إلى القرية، مسربلاً في عجزه.. وفجأة أخذ في اعتباره خطة جديدة: إذا أخبر أندرو هال أن عليه أن يستأجر فتاة جديدة لمساعدة زينا، فقد يمكنه أن يستخدم دفعة المال المقدمة للفرار غربا مع ماتي.. ذهب إلى طاحونة هال، مندفعا إلى زحافتها المحملة. كانت السيدة هال هي الراكبة، وقد تحدثت مع إيثان بتعاطف حول متاعب زينا الصحية الأخيرة. أبدت إعجابها بإيثان لرعايته زينا، ومن قبلها أمه.. انطلقت الزحافة، وظلّ إيثان يتتبع السيدة هال بنظراته: إذا كانوا يشعرون بالأسف لأجله، فلاشك أنهم سيقرضونه المال. لكن إيثان تيقن من أنه يخطط لاستغلال عاطفة آل هال للحصول على المال بشكل غير أمين، وتأكدت له حقيقة موقفه: لا تستطيع زينا أن تعول نفسها، وسيعتمد رحيل إيثان وماتي على خداع آل هال، فاستدار عائدا مرة أخري إلى مزرعته.

***

رجع إيثان إلى البيت، وصعد ليساعد ماتي على إنزال حقيبة سفرها.. وجدها تبكي، بعد أن اعتقدت أنه تركها لما فيه صالحه، وعندئذٍ قررت أنها لن تراه ثانية أبدا. حاول أن يريحها، وأن يساعدها على إنزال حقيبتها إلى أسفل السلالم، وأعلن أثناء تناول الغداء، أنه سينقل ماتي إلى محطة السكك

الحديدية بنفسه، فتجادلت معه زينا، لكنه أصرّ بعنف على أنه سينقلها، وخطط أن يوفر ثلاث ساعات قبل سفر ماتي بقطار الساعة السادسة، مدّعيا بأنّ لديه أعمالا في القرية يتحتم عليه إنجازها.

خرجا عند الساعة الثالثة، وقد استفاد إيثان من الوقت الزائد، كي يأخذ ماتي في نزهة طويلة. ذهبا إلى "شادو بوند"، التي استمتعا عندها معا بنزهة منذ عدّة أشهر ماضية، وهبط إيثان مع ماتي إلى منطقة هادئة في الغابات . تحدّثا بعذوبة كلّ إلى الآخر ، بصراحة عاطفية أكثر من أي وقت مضى. أصبحت تلك المنطقة بكل ذكرياتها السعيدة، شديدة الإيلام. رجعا إلى الزحافة، وبينما كانا يمضيان معا باتجاه القرية تساءل إيثان عمّا تنوي ماتي أن تفعله. لم تكن هناك تنبؤات طيبة، على الرغم من تظاهر ماتي أنها سترتب ما يبدو واضحا أنها ستكون أوقات صعبة بانتظارهما. أخرجت ماتي الرسالة التي بدأ إيثان كتابتها لها، وكانت قد وجدتها بالصدفة. قال إيثان بألم أنه لا يستطيع أن يترك المزرعة، ولكنه يسأل ماتي إذا كانت ترغب في أن تكون معه، فاعترفت أنها ترغب بذلك، ولكن حديثهما لن يغيّر من الأمر شيئا.

بينما كانا يقتربان من أطراف القرية، أقنع إيثان ماتي بالتزلج معه، لأنها فرصتهما الأخيرة للتزلج عبر التل.. وسرعان ما وجدا زلاجة، فهبطا بها على الرغم من حقيقة أنهما كانا في ضوء الشفق، وهو الوقت الذي يكون الضوء فيه أكثر تشوّشًا من أي وقت آخر من النهار. كانت رحلة هبوطهما الأول مبهجة.. كان إيثان يقود بشكل جيّد، وقد وصلا إلى القاع بأمان. ثم تسلقا التل، وسرعان ما تيقنا أنهما لن يري أحدهما الآخر مرة ثانية بعد ذلك أبدا. بدآ يبكيان، غير قادرين على أن يفارق أحدهما الآخر، وهما يخبران بعضهما أنهما لا يحتملان أن ينفصلا. طلبت ماتي أن يأخذها عبر التل مرة

أخري، مباشرة نحو الجرف الكبير. إنها لا تريد الحياة دونه.. ركبا الزلاجة للمرة الثانية، وكان إيثان في المقدمة هذه المرّة، لم يكن قادرا على أن يقود، ولكن المجري سيحملهما مباشرة إلى شجرة بأسفل.

وانطلقا عبر التل، لكنهما لم يموتا. أصبح إيثان مرتبكا، وهو يحسّ بآلام لا تحتمل، تيقن أنه يمسك ماتي، وكانت هي أيضا ما تزال حيّة. سمع الحصان عند قمّة التل يحمحم، وتأكّد أن الحصان يحتاج إلى طعام.

* * *

لنرجع الآن ثانية إلى الحاضر.. وصلت مع فروم إلى منزله، ومن بعيد سمعت صوتا قاسيا لامرأة متشكّية. كانت تجلس في المطبخ امرأتان، إحداهما طويلة متجهمة والثانية نحيلة. نهضت المرأة الطويلة، وأعدّت طعام العشاء على المائدة.. حرّكت المرأة النحيلة رأسها دون أن تحرّك جسمها، فقد كانت مشلولة. كانت تشبه ساحرة متذمّرة ذات صوت مرير، قدمهما إيثان لي: كانت المرأة الطويلة هي زينا، والمرأة المقعدة هي ماتي سيلفر.

* * *

تحدثت بعد ذلك مع الأرملة السيدة هال (روث فارنوم، قبل أن تتزوّج نيد). كانت السيدة هال مندهشة من أن إيثان دعاني إلى منزله في تلك الليلة.. لا يؤمّ منزل فروم كثير من الأفراد، بسبب من كبرياء إيثان. وكانت السيدة هال تزوره مرة أو مرتين في السنة. حاولت أن تختار يوما يكون فيه إيثان بعيدا عن البيت، لأنها لا تحتمل أن تري الألم المرتسم على وجهه.

* * *

في ليلة الحادث، جاءت زينا مباشرة إلى بيت الكاهن، حيث نقل إليه الاثنان بعد الحادث. حالما استطاعت ماتي أن تتحرّك، أعادتها زينا إلى مزرعة فروم. ظلت ماتي هناك منذ ذلك الوقت، لم يكن لها من مكان آخر تذهب إليه. تولت زينا رعايتهما معا لمدة عشرين عاما، وبطريقة ما وجدت قوة كافية لذلك، في الوقت الذي كان يعتقد فيه أنها لا تستطيع العناية بنفسها.. كانوا جميعا شخصيات صعبة مريرة. كانت ماتي كارهة وصعبة، وعلي الرغم من ذلك فإن زينا تتحمّلها عادة، وأحيانا يتشاحنان على نحو شرير، فتبدو على وجه إيثان في تلك الأوقات نظرة حسرة.

كانت السيدة هال تعتقد أنه كان من الأفضل لو أن ماتي ماتت. ثم سرعان ما تستطرد قائلة : "لكنني أقول ، إنها لو ماتت ، وعاش إيثان ، بالشكل الذي هو عليه الآن ، فإنني لم أكن لأري أنّ هناك فرقا كبيرا بين آل فروم الأحياء ، والآخرين الراقدين في فناء المقبرة ، ما عدا أن الموجودين بأسفل هادئين تماما، بعد أن أمسكت النساء ألسنتهن".

* * *

المؤلفون الوارد ذكرهم

الإنجليزي لويس كارول (1832 – 1898):



صورة لويس كارول

هو تشارلز لوتويدج دودجسون، من مواليد 27 يناير 1832، وتوفي في 14 يناير 1898. وقد اشتهر باسم لويس كارول.

وهو كاتب، وعالم رياضيات، وعلم منطق، ورجل دين إنجيلي، ومصوّر.

من أشهر أعماله رواية "مغامرات أليس في بلاد العجائب"، التي تجلت فيها قدرته على الولوج إلى عالم الخيال، من خلال شطحات منطقية وغرائبية أدهشت جمهرة القراء بدءا من الأطفال وانتهاء بالنخبة الأدبية، حتى أصبح عمله جزءا لا يتجزأ من الثقافة الحديثة، كما أثّر بشكل مباشر على كثير من الفنانين.

* * *

الفرنسي آنطوان دي سانت أكزوبري (1900ـ1944):



آنطوان دي سانت أكزوبرى

ولد آنطوان دي سانت أكزوبري في 29 يونيو 1900، في مدينة ليون في فرنسا، فكان الابن الثالث في أسرة مكوّنة من ثلاث بنات وولدين. كان والده يعمل مفتشا للتأمينات، مات في عام 1904 عندما كان آنطوان في الرابعة من عمره، فتوزعت إقامة أسرته بين قصري خاله وجدّته.

كان حلم حياته أن يحلق في الفضاء عاليا، أي أن يطير في أجواء السماء، وسعي بعناد لتحقيق حلمه، رغم ما تكبده من عناء ومخاطر جسيمة من أجل تنفيذ حلمه. في عام 1927، تحقق حلمه وأصبح طيارا في الخطوط الجوية التجارية. وحين ارتحل إلى عالم الكتابة، وجد في نبع رحلاته منجما خصبا لأعمال أدبية شديدة الثراء والتميز، وهو ما ساعده على نشر قصتين، هما: "السفينة الفضية" و"الطيار"، التي ستكون النسخة الأولي من رواية "بريد الجنوب". وفي عام 1929، عيّن مديرا لاستغلال شركة "البريد الجوي الأرجنتينى" في بوينس أيريس، حيث كتب "الطيران الليلى". ثم وقع له حادثا طيران في عامي 1932، 1935، ثم تكررت الحوادث، أصيب في آخرها إصابات بالغة، عولج منها وقضي فترة النقاهة في نيويورك، وهو

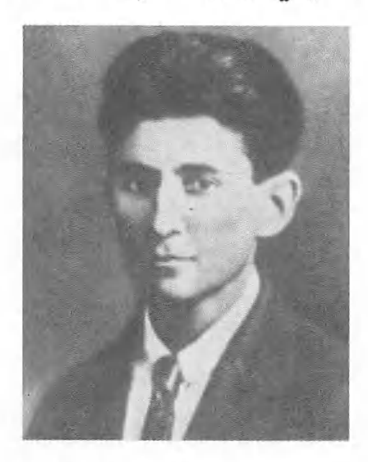
ما سمح له بجمع نصوص رواية "أرض البشر"، تمهيدا لنشرها في العام التالي.

ويعتبر الكاتب الفرنسي من أهم كتّاب العالم قاطبة، ومن أعماله المعروفة: "بريد الجنوب"(1928)، و"الطيران في الليل"(1931)، مرورا برواية "أرض البشر"(1938)،حتى بلغ ذروته في رواية "الأمير الصغير"(1942)، لأنه غاص فيها في أعماق الخيال، مرتبطا في الوقت ذاته بأرض البشر!

صدرت لرواية "الأمير الصغير" أكثر من ترجمة، منها الترجمة التي قام بها عبد الإله سباهي، وصدرت عن دار ثقافة الطفل" بوزارة الثقافة العراقية عام1989.

* * *

التشيكي فرانز كافكا (1888-1924):



ولد فرانز كافكا في 3 يوليو 1888 في براج ببوهيميا (التي كانت تنتمي آنذاك إلى النمسا)، ومات في 3 يونيو 1924، بعد أن أصبح واحدا من أكثر كتاب القرن العشرين تأثيرا على الإطلاق!

هو ابن أسرة يهودية من الطبقة الوسطي.. كان والده هيرمان صاحب متجر، ولكنه كان ضخما وعنيدا، وكانت أمه ليفي رقيقة وحساسة، فنشأ فرانز في ظلّ هيمنة ذلك الأب، الذي أثر عليه بشكل مرعب!

دخل فرانز المدرسة الأولية ببراج ، ثم انتقل إلى المدرسة الثانوية الألمانية ببراج ، وانتقل إلى دراسة القانون حتى حصل على إجازته عام 1906، وهو ما يسّر له العمل أولا بالشركة العامة الايطالية للتأمينات في براغ، التي سرعان ما انتقل منها في العام التالي إلى معهد تأمينات الحوادث الحكومي في براج.

ووقتها كانت ميوله الأدبية قد بدأت تتفتح، فحضر كثيرا من الندوات، ودرس كتابات الفلاسفة والعلماء والأدباء، وبدأ ينشر بعضا من أعماله خاصة الشعر، ثم أنجز بعد ذلك عددًا من الأعمال منها رواية "أمريكا"(1914)، "التأملات"(1913)، "الحكم"(1913)، "المسخ" (1915). وفي عام 1919 كتب رواية "في مستعمرة المساجين"، ثم "المحاكمة"(1915)، "حائط الصين العظيم"(1917)، و"القلعة" (1922).

ومن غرائب القدر أن هذا الكاتب الكبير لم تنشر أي من رواياته في حياته، باستثناء مقطع من رواية قصيرة، ومن ثم لم ينل ما يستحق من شهرة خلال حياته وكان قد حدد لصديقه ماكس برود ما ينشر من أعماله، وأوصاه بأن يحرق بقيتها، لكن صديقه نشر كل أعماله!

كتب فرانز كافكا رواية " المسخ " عام 1915. وقد نشرت ضمن إصدارات " مكتبة الأسرة: روائع الأدب العالمي " (2004)، من ترجمة الفنان التشكيلي والمترجم الدسوقي فهمي، الذي كان قد نشر ترجمتها الأولي بعنوان " المسخ " نفسه على ثماني حلقات بجريدة "المساء" القاهرية في الفترة من 4 – 20 سبتمبر 1968، ثم أعاد نشرها ضمن الجزء الأول من الأعمال الكاملة لكافكا، التي صدرت عن الهيئة العامة للثقافة الجماهيرية عام 1997، تحت عنوان " التحول".

تعتبر هذه الرواية القصيرة إحدي درر كافكا، التي غاص فيها إلى أعماق النفس البشرية، من خلال لحظة (تحوّل) فارقة، كاشفا تأرجح تعامل البشر مابين المظهر والجوهر !

* * *

الأيرلندي أوسكار وايلد (1854 – 1900):



صورة أوسكار وايلد في شبابه

ولد أوسكار وايلد في دبلن بأيرلندا، في يوم 16 أكتوبر 1854. كان أبوه جراحا ودارسا للفلكلور الأيرلندي، ومؤلفا لبعض الكتب عنه، بينما كانت أمه تهوي الكتابة والأدب، وتنشر ما تكتبه تحت اسم مستعار هو "سبيرانزا".. زار في فجر شبابه إيطاليا وتأثر بآثارها وأعجب بالإغريق وعبادتهم للجمال.

تخرج أوسكار بجامعة أوكسفورد عام 1878، وفي العام نفسه فاز بجائزة للشعر على قصيدته "رافينا". وفي عام 1881 نشر مجموعة من قصائده. وفي عام 1888نشر مجموعة قصص وحكايات "الأمير السعيد

وقصص أخرى". وفي 20 يونيو عام 1890 نشر روايته "صورة دوريان جراى" مسلسلة في صحيفة "ليبنكوت"، ثم صدرت في كتاب في أبريل من عام 1891، وفي يوليو من العام نفسه؛ نشر "جريمة لورد سافيل وقصص أخرى"، وفي نوفمبر نشر مجموعة من قصصه الخيالية "بيت من الرمان". ثـم تدفـق إنتاجـه المسرحـي: "سالومـى" (1891)، "مروحـة ليـدي ويندرمـير"(1892)، "امـرأة بغـير أهميـة" (1892)، و"زوج مثالى"(1895). وكتب في عام 1897، وهو يقضي فترة في السجن كتاب "من الأعماق"، الذي نشر بعد ذلك عام 1898. ومات أخيرا في باريس بتاريخ 30 نوفمبر 1900.

***

الأمريكي ف. سكوت فيتزجيرالد (1899 – 1940):



هو من مواليد 24 سبتمبر 1899، بمدينة سانت بول بولاية مينيسوتا. ظهر أول عمل مكتوب له، وهو في الثالثة عشرة من عمره، وكان قصة بوليسية نشرت في جريدة المدرسة. التحق بأكاديمية سانت بول، وكان من أصدقائه الناقد المعروف إدموند ويلسون وجون بيل بيشوب. التحق بالجيش عام 1917، ولاقتناعه بأنه سوف يموت في الحرب، سرعان ماكتب أول رواية، وتمّ إلحاقهُ، في يونيو عام 1918 بمعسكر شريدان قرب مونتجمري بولاية آلاباما حيث وقع هناك في حب فتاة جميلة، هي زيلدا ساير، الابنة الصغري لقاضي الحكمة العليا في آلاباما. وحين تمّ تسريحه من الجيش عام 1919، انتقل إلى نيويورك، محاولا أن يجرّب حظّه هناك حتى يتزوج من محبوبته، لكنها لم تنتظر حتى ينجح في أعمال الإعلان، ولم تكن ترغب في أن تعيش على راتبه الصغير .

في عام 1919، هجر وظيفته، ورجع إلى سانت بول، كي يعيد كتابة روايته "هذا الجانب من الجنة"، التي نشرت عام 1920، فحققت له شهرة

كبيرة، وهو في الرابعة والعشرين من عمره، وهو ما شجعه على الزواج من زيلدا ساير في نيويورك بعد أقل من أسبوع. كتب هناك روايته الثانية "الجميل والملعون"، وحين حملت زيلدا قاما برحلتهما الأولي إلى أوربا عام 1921، ثم رجع ليستقر في سانت بول حيث ولدت طفلتهما الوحيدة فرنسيس في أكتوبر عام 1921.

كتب مسرحية"الخضراوات"، وكان عنوانها الفرعي "من رئيس إلى ساعي بريد"، لكنها فشلت، وحتى يتخلص من ديونه بدأ في كتابة قصص قصيرة، وكان قد بدأ العمل في ذات الفترة في روايته التالية، لكنه راح يدمن الكحوليات، وهو ما أثمر عن شهرته بأنه كاتب غير مسئول، وحين اعترض النقاد بأن أعماله تعتمد على الحب والنجاح، كانت إجابته: "لكن يا إلهي ! إنها مادتي، وهي كل ما لدي كي أتناوله".

وفي ربيع 1924، سافر إلى فرنسا، بحثا عن الهدوء، حيث كتب رواية "جاتسبي العظيم"، لكن الخلاف دبّ بينه وبين زوجته بسبب علاقتها مع طيار فرنسي. ثم أمضي شتاء عامي 1924، 1925 في روما، حيث راجع روايته، التي صدرت بعد ذلك في إبريل، فأثارت ضجة بسبب أسلوب كتابتها، وبنائها المركب، وسردها المحكم. لكن مبيعاتها كانت مخيبة للآمال، وهو ما عوّضه من خلال عمله في السينما والمسرح.

وخلال عام 1926، بدأ في باريس العمل في روايته التالية.. ثم عاد إلى الولايات المتحدة، حيث دمّر فشل زيلدا في أن تكون راقصة باليه محترفة سكينتها، فعانت من أول انهيار لها عام 1930، وهو ماترتب عليه علاجها في سويسرا عام 1931 بينما عاش هو في الفنادق السويسرية وتوقف العمل

في الرواية، وإن استمر في كتابة القصة القصيرة حتى يستوفي تكاليف العلاج. ثم عاد إلى أمريكا عام 1931، وقام برحلته الثانية إلى هوليود، وعادت معاناة زيلدا عام 1932، فأصبحت نزيلة دائمة أو مؤقتة بمصحات العلاج.. وفي عام 1934، أكمل روايته الرابعة "رقيق هو الليل" .

كانت فترة 1936، 1937، هي فترة الانهيار، التي عاني فيها من المرض، الخمر، الديون، وعدم القدرة على كتابة قصص تجارية، فرجع إلى هوليود عام 1937، بعقد أسبوعي بألف دولار، ارتفع في العام التالي إلى 1250 دولارا، وهو ما منحه فرصة لسداد ديونه ، لكنه لم يستطع أن يدّخر. وفي عام 1939، بدأ في كتابة روايته الأخيرة، وكان قد أكمل نصفها، حين وافته المنية في 21 ديسمبر 1940 .

صدرت له أربع مجموعات قصصية، وكتب عام 1937 قصة "طريق الخروج الطويل"، التي اخترنا ترجمتها.

* * *

السويدية سلمي لاجرلوف (1858 – 1940):



التحقت سلمي لاجرلوف بكلية المعلمين بأستكهولم عام 1881، وأصبحت مدرسة عام 1885 في مدرسة ثانوية للبنات في لاندسكرونا.

مارست سلمي كتابة الشعر منذ أن كانت طفلة، لكنها لم تنشر أي من أعمالها حتى عام 1890، حين حصلت على الجائزة الأولي من مجلة أسبوعية في مسابقة أدبية، ونشرت المجلة جزءا من العمل الفائز.

سافرت إلى إيطاليا، حيث كتبت "معجزات فوضوى"، وهي رواية تجري أحداثها في جزيرة صقلية. وبعد أن نشرت بعضا من أعمالها، كتبت "القدس: المدينة المقدسة"(1901- 1902)، وهي رواية حول بعض الفلاحين المهاجرين إلى المدينة المقدسة، وهي عن تجربة حقيقية قابلت فيها بعضا من هؤلاء الفلاحين خلال زيارتها الفعلية للقدس.

وسرعان ما كتبت الكتاب الذي تقرر تدريسه للتلاميذ في مراحل الدراسة الأولية، وهو رواية "المغامرات العجيبة لنيلز" (1906)، الذي جلب لها شهرة عالمية بعد أن ترجم إلى معظم اللغات العالمية.

أصدرت بعد ذلك عددا من الأعمال، ثم نالت جائزة نوبل في الآداب عام 1909.. توفيت في 16 مارس عام 1940.

* * *

الأمريكية إديث وارتن (1862 – 1937):



ولدت إديث وارتن في 24 يناير 1862 بمدينة نيويورك، لأسرة ثرية معروفة. تعلمت تعليما خاصا، وتزوجت عام 1885 من رجل بنك بوسطن إدوارد وارتن، الذي كان يكبرها باثنتي عشرة سنة. كانت حياة إديث موزعة بين حياة زوجيـة غـير موفقـة وطمـوح أدبـي لا تستطيع تحقيقه. كانت قد بدأت تؤلف قصائد الشعر من فترة مراهقتها، كما ظهرت مجموعة من قصصها القصيرة مطبوعة عام 1890.

وبعد أن تزايدت متاعب حياتها الزوجية سافرت إلى باريس، مكتشفة في الكتابة الأدبية ملاذًا مما تعانيه.. أصدرت رواية "منزل ميرث"(1905)، وهي قصة عن امرأة جميلة لكنها فقيرة، جلبت لها شهرة عريضة، ونشرت عام 1913 رواية "عادات البلد"، التي كانت تتناول حياة شابة طموحة. ونشرت رواية "إيثان فروم" عام 1911. كما نالت روايتها "عصر البراءة"(1920) جائزة البوليتزر الأدبية. واستمرت في الإنتاج، حتى توفيت في 11 أغسطس عام 1937.

* * *

صدر من هذه السلسلة

روائع الأدب العالمي في كبسولة (1) عرض وتبسيط مختار السويفى
روائع الأدب العالمي في كبسولة (2) عرض وتبسيط مختار السويفى
روائع الأدب العالمي في كبسولة (3) عرض وتبسيط مختار السويفى
روائع الأدب العالمي في كبسولة (4) عرض وتبسيط مختار السويفى
روائع الأدب العالمي في كبسولة (5) عرض وتبسيط مختار السويفى
روائع الأدب العالمي في كبسولة (6) عرض وتبسيط مختار السويفى
روائع الأدب العالمي في كبسولة (7) عرض وتبسيط مختار السويفى
روائع الأدب العالمي في كبسولة (8) عرض وتبسيط حسين عيد
روائع الأدب العالمي في كبسولة (9) عرض وتبسيط حمدى عباس